موقف

الشيخ محمد الخضر حسين

من قضية الحرية

تأليف

د. محمد بن إبراهيم الحمد

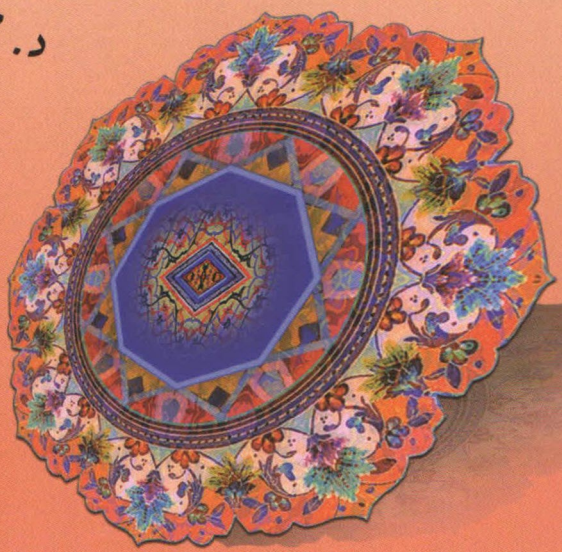

دار ابن الجوزي

مَوقِف

الشَّيخ مُحَمَّد الخَضِر حُسَين

مِن قَضِيَّة الحُرِّيَّة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٣٦هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية، الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص.ب: ٢٩٥٧

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت

هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٣٧٣٨٨

تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد للَّه، والصلاة والسلام علىٰ رسول اللَّه نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فهٰذه صفحات يُبَيَّن من خلالها موقف الشيخ العلامة المتشرِّع، اللغوي الأديب الموسوعي محمد الخضر حسين التونسي (١٢٩٣هـ ـ ١٣٧٧هـ) من قضية الحرية.

وهذه الصفحات ـ في أصلها ـ مستلَّة من رسالتي للماجستير الموسومة بـ«منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقدية والفكرية»[١].

---

(١) وقد خرجت هٰذه الرسالة في مجلدين وفي ١٠٤٦ صفحة، وقد احتوت علىٰ ترجمة موسعة للشيخ الخضر، ودراسة لمؤلفاته، وبيانٍ لمنهجه في إثبات العقيدة، والرد علىٰ المخالفين، كما اشتملت علىٰ مواجهاته للفرق والدعاوىٰ الضالة في عصره؛ كالبابية، والبهائية، والقاديانية، والتنصير، والروحية الحديثة.
كما تضمنت بيان موقفه من الفلسفة، والتصوف، والتشيع، والشرك، والبدع، والإلحاد، وقضايا: العلمانية، والحرية، والتغريب، وتحرير المرأة.

إذ هي تمثل الفصل الثاني من الباب الخامس من الرسالة الآنفة الذكر.

وقد أفردت هاهنا ـ مع بعض الزيادات ـ لأسبابٍ أبرزها ما يلي:

١ ـ الرغبة في سهولة تداولها، وانتشارها، وعمومِ نفعها.

٢ ـ مسيسُ الحاجة إلىٰ دراسة قضية الحرية، وتأصيلها من ناحية شرعية؛ إذ هي من القضايا الحية.

٣ ـ كونها تمثِّل موقفَ عَالِمٍ يأتي في طليعة علماء عصره، ويعد من أوائل من بحثوا قضية الحرية، ومن قلائل من جمعوا إلىٰ العلمِ الشرعيِّ المتينِ ـ الموسوعيةَ والشموليةَ، والبصيرةَ النافذةَ في الفكر وقضاياه.

٤ ـ كون الشيخ الخضر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبوَّأ مناصبَ شرعيةً وعلميةً، وأكاديميةً تكاد تكون أرفع المناصب؛ فهو القاضي الشرعي، والكاتب البارع، والمؤلف المتفنن المكثر، وهو ـ كذٰلك ـ عضو مجمع اللغة العربية، وعضو هيئة كبار العلماء في مصر.

ثم هو ـ بعد ذٰلك ـ شيخ الجامع الأزهر[1]؛ فلهٰذه الشخصية حضورها، ووهجها العلمي والفكري في شتىٰ بقاع العالم

(١) مع أنه لم يكن مصريًا، وإنما هو تونسي الولادة والمنشأ، ولم يستقر مقامه في مصر إلا عام (١٣٣٩هـ)، ولهٰذه الناحية من سيرته قصة يطول ذكرها، وهي مفصلة في الرسالة الأصل.

الإسلامي.

٥ ـ ما كان للشيخ الخضر من صولات وجولات مع من انحرف بهم المسار في باب الحرية ذات اليمين أو ذات الشمال.

٦ ـ كونه تناول هٰذه القضية ـ كما تناول غيرها ـ بأسلوبه العربي المبين الذي يجمع فيه بين السلاسة والجزالة؛ فسما إلىٰ غايةٍ بعيدة من الإمتاع والإطراب، بخلاف كثيرين ممن يتناول القضايا الفكرية؛ حيث تأتي أساليبهم وقد غلب عليه عنف الممارسة، وكثرة الإسهاب فيما لا طائل تحته.

هٰذا وإن الحديث في هٰذا الشأن سيكون من خلال مدخل، وثلاثة مباحث، وذٰلك كما يلي:

مدخل: وقفة حول مصطلح الحرية.

وفيه إيضاح لمعنىٰ هٰذا المصطلح، واختلاف النظرة إليه، وتطور دلالته، ونحو ذٰلك.

المبحث الأول: جهود الشيخ الخضر في التأصيل لقضية الحرية:

المبحث الثاني: مفهوم الحرية عند الشيخ الخضر:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معالم الحرية.

المطلب الثاني: أنواع الحرية.

المبحث الثالث: موقفه من الحرية الحقة وحرية الفوضىٰ:

وفيه: مطلبان:

المطلب الأول: وقوفه مع الحرية الحقة.

المطلب الثاني: وقوفه ضد حرية الفوضىٰ.

وتحت كل واحد من المطالب الماضية تفصيلات وتفريعات؛ فإلىٰ بيان ذٰلك، واللَّه المستعان، وعليه التكلان.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

الزلفي: (ص. ب: ٤٦٠)

(٢١/ ٧/ ١٤٣٦هـ)

جامعة القصيم ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

WWW.TOISLAM.NET

ALHAMAD@TOISLAM.NET

ALHAMAD--@M

مدخل

وقفة حول مصطلح «الحرية»

❁ مدخل ❁

وقفة حول مصطلح الحرية

قبل الدخول في تفصيلات موقف الشيخ محمد الخضر حسين من قضية الحرية ـ يحسن الوقوف علىٰ بيان هٰذا المصطلح، من حيث مفهومه، ونظرة الناس إليه، وتطور دلالته، وما مجرىٰ مجرىٰ ذٰلك؛ فالحرية مصطلح شائع، ولفظ رائج، له حضوره في ميدان الفلسفة، والثقافة، والإعلام.

ولا تجد لفظًا ـ كما يقول العلامة ابن عاشور ـ تهواه النفوس، وتهش لسماعه، وتستزيد من الحديث فيه ـ مع أن معظمهم لا يضبط مقدار المراد منه ـ مِثْلَ لَفظِ «الحرية».

وما سبب ذٰلك التعلق العام إلا أن معظم من يسمعون هٰذا اللفظ، أو ينطقون به يحملونه علىٰ محامل يخفُّ محملها في نفوسهم؛ فالوقح يحسب الوقاحة حرية؛ فيخف عنده ما ينكر الناس من وقاحته، والجريء الفاتك يَنْمِي صنيعه إليها، فيجد من ذٰلك مسوِّغًا لجرأته، ومحبُّ الثورة يَعد الحرية داعيةً لدعوته، والمفتون في اعتقاده يدافع الناقمين عليه بأنه حر العقيدة.

ثم إن العمال والصُّنَّاع والأُجراء فهموا من معنىٰ الحرية استخدام تكتُّلاتهم للوصول إلىٰ الاستيلاء علىٰ أموال أرباب العمل.

وفَهِمَ محتالو سلب الأموال من معنىٰ الحرية إطلاق أيديهم في ألوان الغش، والاحتكارات، وحيل المضاربات، وخُدع القمار، وأشباه ذٰلك؛ لسلب الناس أموالَهم وهم غافلون.

وفَهِمَ بعضُ المراهقين والمراهقات الحريةَ علىٰ معنىٰ الانفلات الأرعن، والتمرد علىٰ الرعاة من الأسرة والمربين والمعلمين، إلىٰ غير ذٰلك من المفهومات الغالطة. هٰذا من ناحية.

ومن ناحية أخرىٰ صار كل مستبد من سلطةٍ مدنية، أو عسكرية، أو قانونية، أو دينية، أو أسرية عدوًّا للحرية.

وهٰكذا ترىٰ أن الحرية لفظ مأنوس، وغايةٌ مبتغاة لكل أحد من الناس أيًّا كان غرضه منها.

وهٰذا ما حدا بابن عاشور أن يقول: «فيا للَّه لهٰذا المعنىٰ الحسن ماذا لقي من المحن، وماذا عُدِل به عن خير سنن؟»[1].

هٰذا وإن الحديث عن الحرية يأخذ مجالات شتىٰ، فيبحث في جذرها اللغوي، وأنه مضاد لمعنىٰ الرق والعبودية.

---

(١) انظر: بحث أثر الدعوة المحمدية في الحرية والمساواة لابن عاشور في مجلة «الهداية الإسلامية»، الجزء التاسع والعاشر من المجلد السادس ربيع الأول والآخر (١٣٥٣هـ)، ومقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث ٢/ ٣٦٩، وكواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، ص ٢٢٣ ـ ٢٣٠، ومفهوم الحرية في مذاهب الإسلاميين أ.د. محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م، ص٥ ـ ٢٢.

ويتناول التطور الدلالي للفظ الحرية؛ حيث صار لذٰلك اللفظ وهج ودويٌّ، فأصبح مرموقًا بعين الرعاية والإجلال؛ فشاع شيوعًا واسعًا بين الناطقين بالعربية، ولا سيما بعد أن تنوسيت أحوال الرق، أو أوشكت علىٰ أن تنسىٰ منذ القرن الثالث عشر الهجري؛ فكاد أن يضمحل إطلاق اسم «الحرية» علىٰ معناه الحقيقي؛ فصار يطلق علىٰ لفظ الحرية بمعنىٰ: عمل الإنسان ما يقدر علىٰ عمله حسب مشيئته، لا يصرفه عن عمله أمرُ غيرِه.

وصار يعني: السلامة من الاستسلام إلىٰ الغير بقدر ما تسمح به الشريعة والأخلاق الفاضلة ـ كما يقول ابن عاشور[1] ـ.

ولقد استُعمل هٰذا اللفظ في هٰذا المعنىٰ في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، بعد أن ترجمت كتب تاريخ فرنسا والثورة التي قامت فيها عام (١٧٨٩م)؛ فهي التي أثبتت معنىٰ الحرية، وعبرت عنه اللغة اللاتينية واللغات المتفرعة منها بلفظ يدل فيها علىٰ معنىٰ: «فعلُ الفاعل لما يريد»؛ أي: تَصرُّف الإنسان بعمله علىٰ حسب مشيئته لا يمنعه منه غيره.

---

(١) انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور، ص١٥٠، ومقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، تحقيق ودراسة محمد الطاهر ميساوي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١ م، ص ٣٩٠ ـ ٣٩٣، ومقالات لكبار كتاب العربية ٢/ ٣٦٩، وانظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد الخضر حسين ط٨، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م، ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

وهو يقارب ما يعبَّر عنه في العربية بلفظ: «الانطلاق»، أو: «الانخلاع من ربقة التقليد»[١].

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا نعرف كلمةً مفردةً في العربية تدل علىٰ هٰذا المعنىٰ، وإذ قد كان من أسبق صور هٰذا الانطلاق تَبَادُرًا إلىٰ الأذهان صورة الانعتاق من الرق والفكاك من الأَسْر؛ لما أن نظام الحكومة الملوكية في فرنسا كان نظامًا إقطاعيًّا لا نظير له في الإسلام؛ لأن نظام ملوك فرنسا كان قائمًا علىٰ اعتبار سكان أرض المقاطعة عبيدًا للأمير الذي يُقْطِعه الملك تلك الرقعة؛ فكان لذٰلك الأمير أن يمنع من شاء مَنْعَه من عمل ما ـ بَلْهَ ملك فرنسا الأكبر ـ ؛ فجاءت الجمهورية في فرنسا، فقوضت ذٰلك، واعتبرت الناس منطلقين من تلك القيود، وعبَّرت عنه بما ترجمه المترجمون بلفظ «الحرية»؛ تشبيهًا وتقريبًا، ونِعْمَ ما صنعوا»[٢].

إلىٰ أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم يرد في العربية إطلاق ما تشتق منه كلمة الحرية علىٰ هٰذا المعنىٰ بعينه، لٰكن ورد إطلاق مادتها علىٰ السلامة من نقائص كانوا يعتبرونها من صفات العبيد، قرنوها بهم؛ لما تخيَّلوه فيهم من الانحطاط، مثل صفات: الذل، والخساسة، والكسل.

وقد كان إرهاقهم العبيدَ من أكبر أسباب ظهور تلك النقائص

(١) انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٥٠.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٠ ـ ١٥١.

فيهم؛ فضربوا بهم الأمثال فيها»[١].

ثم شرع رَحِمَهُ اللَّهُ في ضرب الأمثلة والشواهد علىٰ ذٰلك.

هٰذا وإن لمصطلح «الحرية» ارتباطًا بكثير من الفلسفات، والنظريات، والمذاهب الفكرية كالإنسانية، والليبرالية، والعلمانية، والبراغماتية، وغيرها مما هو شائع في الغرب، وفي الدراسات العلمية والأكاديمية فيه[٢].

ولمصطلح الحرية ـ كذٰلك ـ وهجٌ وبريق في بلاد الإسلام؛ خصوصًا في العصور المتأخرة، وذٰلك لأسباب يأتي علىٰ رأسها الاستبدادُ السياسي، والقوىٰ الاستعمارية، وما تقوم به من أعمال غاشمة تُخنق من خلالها الحريات، وتقضي علىٰ الحكم بما أنزل اللَّه؛ فكانت الحرية مطلبًا تتوق إليه الشعوب والأفراد، وبابًا تدقُّه كلُّ يدٍ مُضَرَّجةٍ، وشأنًا يسعىٰ إليه خاصةُ الناسِ وعامتُهم.

فهٰذه وقفة يسيرة حول مصطلح الحرية، وما مرَّ به من تطور.

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٥١.

(٢) انظر: الفلسفة في أوربا لـ«بوشنسكي»، ترجمة عزت قرني، ومدخل إلىٰ الفلسفة المعاصرة د. محمد مهران رشوان، وتشكيل العقل الحديث لـ «كرين برينتون»، ترجمة شوقي جلال، ص ٢٧ ـ ٧٤، والعطاء الحضاري للإسلام أ.د. محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م، ص٥ ـ ٦٨.

المبحث الأول

جهود الشيخ الخضر في التأصيل لقضية الحرية

❁ المبحث الأول ❁

جهود الشيخ الخضر في التأصيل لقضية الحرية

لما كانت الحرية ـ بهٰذا الاعتبار ـ نازلةً تستدعي من أهل العلم والفكر أن ينظروا في شأنها، ويقلِّبوا أبصارهم في أعطافها، وكان ذٰلك الشأن لا يتسنىٰ لكل أحد أن يخوض غماره، ويبحث في أسراره ـ انبعثت همم بعض أهل العلم والفكر؛ للقيام بِإِصْرِ هٰذه المهمة الجليلة؛ لبيان موقف الشرع من هٰذا المقام الذي يستدعي البحث، والإطالة؛ ليكون الحكم فيه علىٰ شيء مضبوط، ولأجل ألَّا يَظُنَّ أحدٌ أن الإسلام أغفل باب الحرية، أو دعا إلىٰ الحرية بإطلاق، أو علىٰ سبيل الإجمال؛ فهنالك حدودٌ دقيقة في هٰذا الباب، وبعضها محمودٌ نافع، وبعضها مذمومٌ ضار.

ولا ريب في أنه ليس في طوق كل أحد أن يقوم ذٰلك المقام العظيم، خصوصًا وأنه في بداياته؛ فالفضل للمتقدم، ويحتاج إلىٰ عالم قد ملأ وِطَابه من العلم بالشريعة، والتفقه بمقاصدها، والنظر في أسرار الاجتماع، والبحثِ في واقع الحياة، حتىٰ يعطيَ ذٰلك المقام حقه.

ومن هنا انبرت همة الشيخ محمد الخضر حسين للقيام بتلك المهمة الخطيرة؛ فهو الذي عاصر الاستعمار لما كان في أَوْجِه، وعايش الصراعاتِ الفكريةَ التي كانت تدور رحاها في ذٰلك الوقت.

ومن جملة تلك القضايا التي كانت تؤرقه: قضية الحرية؛ إذ كان له إسهام في تجلية مفهومها، ودراسة ما يتعلق بها، وبيان موقف الإسلام منها؛ فكان من أوائل من تناول هٰذا الباب بالدراسة، والتحليل؛ بل لا تبالغ إذا قلت: إنه أول من درس هٰذا الموضوع، وطرقه بهٰذا العمق من منظور شرعي إسلامي.

وتعد مقالاته في «السعادة العظمىٰ»[١] التي أنشأها في بواكير حياته العلمية[٢] بذورًا لتلك النبتة التي استوت علىٰ ساقها حين ألقىٰ محاضرته الشهيرة «الحرية في الإسلام» عام (١٣٢٤هـ).

تلك المحاضرة التي كانت ردًّا علىٰ المستبدين والمستعمرين، والمخالفين في مفهوم الحرية، وأطلقت العِنان للباحثين في بلاد تونس خصوصًا وغيرها عمومًا أن يتناولوا هٰذا الموضوع الجليل، ويرعَوه حق رعايته.

وأشهر هٰؤلاء: الشيخ الجليل العلامة محمد الطاهر بن عاشور الذي دعا الشيخ الخضر لإلقاء تلك المحاضرة، وكان رئيس سامرها[٣].

---

(١) انظر: علىٰ سبيل المثال: السعادة العظمىٰ ص٩٨.

(٢) وذٰلك في عام ١٣٢٢هـ.

(٣) وقد ألقىٰ ـ أي الشيخ ابن عاشور ـ بعد انتهاء محاضرة «الحرية في الإسلام» خطابًا فائقًا أثنىٰ فيه علىٰ المحاضرة وعلىٰ ملقيها، يقول فيه: «يا أيها الأستاذ النحرير! ويا أيها السادة! يسرني أن أقف موقفي هٰذا لأمثِّل علىٰ مرأىٰ من السادة الحاضرين مقدار الابتهاج والسرور بمسامرتكم =

= الفائقة، التي سمح لنا بها هٰذا النادي أو السامر الشريف، فسمعنا منها فلسفةً حقيقيةً لمبدأ عظيم من مبادئ شريعتنا الإسلامية، وشاهدنا مثالًا صحيحًا للفصاحة والبلاغة العربيتين يحيىٰ من الأمل بحياة اللغة العربية متىٰ ساعدتها عزيمتكم وعزيمة معضديكم من رجال النشأة العلمية المستنيرين.

ولأفصح بعبارات ملؤها الإعجاب والثناء عن مقدار سروري بما شاهدته وشاهده العارفون من نتائج هاته الجمعية، التي تحقق آمال بلوغها شأوًا من الرقي، وإيقاظ العيون الوسنة إلىٰ غايات العمل، واكتساب فخر خدمة الأمة خدمة صادقة.

فلقد مضت علينا عصور اعتدنا فيها تضاؤلَ المشروعات الناشئة، حتىٰ خُلِقَ فينا إشفاقٌ جديدٌ علىٰ كل مشروع من مشروعاتنا الخيرية، ولٰكن هاته الجمعية قد قارنت منذ نشأتها من جلائل الأعمال ما جعلها محل الإعجاب؛ عِوَضَ أن تكون موضع الإشفاق.

وعندي أن أكبر معين لها علىٰ أعمالها هو تأسيس هٰذا النادي الذي تسهلت به لديها عقبات التفاهم والمجادلة فيما يعود لخير الأمة وتقدم المعارف.

وقديمًا ما كانت النوادي مبعث أشعة النور؛ سواء في الأمة العربية التي كانت أقامت النوادي لمهماتها في القرن الثاني قبل الهجرة، وأول من أقامها قصي بن كلاب الذي أسس وحدة قريش، ورد عنهم الأيدي الطاغية من خزاعة، وسمىٰ أول نادٍ لهم في مكة بدار الندوة».

«أما في الأمم الغربية، فإننا لا ننسىٰ ما كان لتأسيس النوادي من الشأن الكبير في النهضة الفرنسية عند إقامة دعائم الجمهورية الأولىٰ، ومن أشهرها يومئذ نادي اليعقوبيين وفي تسمية النادي في اللغة الفرنسية بما يرادف كلمة «دائرة» سر لطيف من معاني الوفاق والتساوي والإحاطة اللازمة لأجزاء الدولة كلها.

ولقد ظهر بهٰذا النادي من مسامرات علمية في أمد وجيز ما خلد له ذكرًا =

ثم كان لابن عاشور بعد ذٰلك إسهامات جليلة في هٰذا الباب، ومن أهمها مباحثه عن الحرية في كتابَيهِ العظيمين: «مقاصد الشريعة»[١]، و«أصول النظام الاجتماعي في الإسلام»[٢]، ومنها بحثه المعنون بـ«أثر الدعوة المحمدية في الحرية والمساواة»[٣].

ولقد كانت محاضرة «الحرية في الإسلام» من أقدم محاضرات الشيخ الخضر، وأكثرها سيرورةً في الناس.

يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني ـ ابن أخي الشيخ الخضر ـ في مقدمة كتاب «محاضرات إسلامية»: «وفاتحة هٰذه المحاضرات «الحرية في الإسلام» من أمهات المحاضرات الإسلامية وأوائلها التي ألقاها الإمام الأكبر في مطلع حياته الدينية والسياسية، ألقاها بنادي «جمعية قدماء تلامذة الصادقية» في تونس، وذٰلك مساء

= ساميًا، وأخص بكلامي ما ظهر فيه من مواهب الأساتذة المتنورين من أهل العلوم العربية، وما حققوه من المباحث في نقد التاريخ وفلسفة العمران الإسلامي، وهٰذه مسامرة الأستاذ النقاد هاته الليلة أعدل شاهد علىٰ ذٰلك». انظر: الحرية في الإسلام، طبعة دار الاعتصام ص ٧٥ ـ ٧٦؛ ففيها نص كلمة ابن عاشور هٰذه كاملة؛ بخلاف طبعة الموسوعة؛ فإنه قد حذف منها مقدار النصف مع نفاسة هٰذه الكلمة، وعظم مناسبتها، وجلالة قدر ملقيها. انظر: موسوعة الأعمال الكاملة ٤/ ١٧٨٦.

(١) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية ص ٣٩٠ ـ ٤٠٠.

(٢) انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص ١٤٣ ـ ١٦٧.

(٣) انظر: الهداية الإسلامية الجزء التاسع والعاشر من المجلد السادس ربيع الأول والآخر (١٣٥٣هـ)، ومقالات لكبار كتاب العربية ٢/ ٣٦٩ ـ ٣٩٩.

يوم السبت الواقع في (١٧ ربيع الثاني من عام ١٣٢٤هـ).

وكان يشغل آنذاك منصب قاضي مدينة «بنزرت»، وقد طبعت هٰذه المحاضرة عام (١٣٢٧هـ) برسالة خاصة، وأعيد طبعها مرتين فيما بعد»[١].

وطبعت هٰذه المحاضرة بعد ذٰلك مرارًا، ومن تلك الطبعات طبعة دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع في القاهرة، وجاءت في سبع وستين صفحة.

وطبعها الأستاذ علي الرضا في كتاب مستقل عدة مرات، ومنها الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) في الدار الحسينية في خمس وثمانين صفحة من القطع المتوسط.

ويواصل الأستاذ علي كلامه علىٰ تلك المحاضرة فيقول: «تعتبر محاضرة «الحرية في الإسلام» من الوثائق القومية والتاريخية التونسية الهامة، فقد أُلقيت في عهد الحماية الفرنسية، وفي أوج غطرستها وشراستها، تلك الحماية الرهيبة التي كانت تعتبر تونس قطعةَ أرض ملحقةً بفرنسا، وتكمم الأفواه عن النطق بالأحاديث المعتادة، فكيف الحال بصوتٍ داوٍ يتحدث عن الحرية في آذان شعب مضطهد؟!.

تناقلت الأيدي المحاضرة من بيت إلىٰ بيت، ومن معهد إلىٰ

(١) محاضرات إسلامية، للإمام محمد الخضر حسين، اعتنىٰ به علي الرضا الحسيني، مؤسسة دار النوادر، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م، ص٣.

معهد، يهمس بها المواطن التونسي إلىٰ أخيه، فينتشر شعاعها في القلوب المؤمنة بحرية التراب التونسي.

وقد حدثني سيدي الوالد الشيخ زين العابدين التونسي ـ حفظه اللَّه ـ أن العم الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ عندما ألقىٰ هٰذه المحاضرة، أحدثت أثرًا عميقًا في المجتمع التونسي، ما زال يفعل فعله في الأوساط الشعبية كالنار في الهشيم، وكانت صوتًا من أصوات النضال التونسي السائر في الطريق إلىٰ الحرية»[1].

وسيأتي مزيد بحث عنها عند الحديث عن موقف الشيخ الخضر من قضية الحرية.

هٰذا ولم تكن محاضرة الشيخ الخضر «الحرية في الإسلام» هي الأخيرة مما تناولَهُ في باب الحرية، بل لقد كان طيلة حياته يتعرض لذٰلك الموضوع في كثير من كتبه، وردوده، ومحاضراته.

غير أن محاضرة «الحرية في الإسلام» هي أعظم وأوسع ما كتبه في ذٰلك الشأن، وكل ما كتبه في شأن الحرية راجع إلىٰ تلك المحاضرة.

والحديث هاهنا سيدور في معظمه حول هٰذه المحاضرة التي افتتحها بمقدمة تُلَوِّح إلىٰ موضوع الحرية حيث قال فيها: «بسم اللَّه الرَّحمٰن الرحيم، وصلىٰ اللَّه علىٰ سيدنا ومولانا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

---

(١) المرجع السابق ص٣ ـ ٤.

الحمد للَّه الذي خلق فسوىٰ، وجعل التمايز في مقام الكرامة بالتقوىٰ، وصلىٰ اللَّه علىٰ سيدنا ومولانا محمد الذي أنقذنا من ذلة الشقاء، وخلع علينا لباس العزة عند اللقاء، وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا»[1].

ثم بيَّن أن سبب تلك المحاضرة هو مخاطبة جرت بينه وبين صديقه السيد خير اللَّه رئيس «جميعة قدماء تلامذة الصادقية»، علىٰ أن يضع الشيخ الخضر مسامرة تنطبق علىٰ الخطة التي رسمتها الجمعية.

يقول الشيخ الخضر: «تلقيت ذٰلك الخطاب بواسطة صحيفة من صديقي النحرير الشيخ السيد محمد الطاهر بن عاشور رئيس هٰذه الحفلة الجامعة، أرسل بها إليَّ حيث طوَّحت بي طوائحُ القضاء المحتوم؛ فاستوقفتُ له خاطري وقفةَ المتردد، واستلفتُّ له نظري لفتةَ المتروي لما يرد علىٰ فكري من القضايا التي لم تُبقِ لي مثقال ذرة من الوقت شاغرًا.

والشواغل التي من شأنها إذا لبست فكرةً ذهبت بها في جانب يبعد عن ناحية هٰذا الغرض بمراحل واسعة، فمتىٰ قَلَّبْتُه في هٰذا الميدان أخشىٰ أن تُقَيِّده حبسة، أو يثنيه جماح، ولا سيما حين يلجُّ به الغوص في بعض المواضيع التي يبعد شأوها، ويعلو

---

(١) الحرية في الإسلام طبعة دار الإصلاح ص٧، وهٰذه المقدمة لا توجد في موسوعة الأعمال الكاملة.

مرتقاها»[١].

إلىٰ أن قال: «لبثت في هٰذا التردد أمدًا غير بعيد، فإذا أمنية تنازعني في نفسي، ولطالما نظرت إليها بعين المشوق المستهام؛ إن هي إلا ابتغاء الدخول في صف فتية من إخواني الأدباء، كنت أسايرهم إذا أعنقوا في الآداب، وأشد كفي بِعُرىٰ مرافقهم التي ألِفتها قديمًا، ولبثت فيها من عمري سنين؛ فأكره شديدًا أن أسُلَّ يدي من رابطتهم، وأحجم عن مجاراتهم ما اهتديت لذٰلك سبيلًا.

تحركت هٰذه الأمنية، وقويت داعيتها، فأرتني الأمر قريب المأخذ، سهل التناول، حتىٰ تخيلته موضوعًا علىٰ طرف الثُّمام؛ فانقلب ذٰلك التردد من حينه حاديَ سمع ومطاوعة، وعند التفاهم مع الرئيس في موضوع المسامرة، وقع الاختيار علىٰ مبحث: الحرية في الإسلام»[٢].

ثم شرع بمقدمة رائعة تحتوي علىٰ معانٍ عالية، وحكم بالغة، ثم تعرض لحال الأمة العربية قبل الإسلام، وبعد الإسلام من الظلم والعدل[٣].

ثم انتهىٰ إلىٰ التعريض بمظالم الاستعمار الفرنسي، والنظام الملكي للبايات المطلق[٤]، وذٰلك بقوله: «فالأمة التي بُليت

(١) محاضرات إسلامية ص٥.
(٢) المرجع السابق ص٦.
(٣) المرجع السابق ص ٥ ـ ١١.
(٤) انظر: الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع ص١٤٠.

بأفراد متوحشة تجوس خلالها، أو حكومية جائرة تسوقها بسوط الاستبداد ـ هي الأمة نصفها بصفة الاستعباد، وتنفي عنها لقب الحرية»[١].

ثم أفاض بعد ذٰلك في الحديث عن الحرية.

فهٰذه نبذة عن جهود الشيخ الخضر في التأصيل لقضية الحرية، وسيأتي مزيد تفصيل وبيان لتلك الجهود في المباحث التالية.

(١) محاضرات إسلامية ص١١.

المبحث الثاني

مفهوم الحرية عنده

❁ المبحث الثاني ❁

مفهوم الحرية عنده

لقد عُني الشيخ الخضر ـ كما مر في المبحث الماضي ـ بتأصيل البحث في الحرية، وكان من أَجَلِّ ما عني به في ذٰلك الشأن إيضاح مفهوم الحرية، وإزالة اللَّبس عما يعتري ذٰلك المفهوم.

ويدخل تحت ذٰلك جملةٌ من التفصيلات في باب الحرية، وهٰذا ما سيتضح من خلال المطلبين التاليين:

المطلب الأول: معالم الحرية.

المطلب الثاني: أنواع الحرية.

* * *

❁ المطلب الأول: معالم الحرية ❁

لعل من أهم ما عُني به الشيخ الخضر في باب الحرية: عنايتَه بتعريفها، وحدودها، وخصالها، وما ترتكز عليه من قواعد.

وفيما يلي تفصيل لذٰلك كله.

❁ أولاً: تعريف «الحرية» وحدودها:

١ ـ تعريفها في الأصل الوضعي اللغوي:

تطرق الشيخ الخضر للتعريف الجذري اللغوي للحرية، وبيَّن مدلول هٰذا اللفظ في أصل الوضع، فقال: «تنبئ هٰذه الكلمة بسائر تصاريفها في اللسان العربي علىٰ معانٍ فاضلةٍ ترجع إلىٰ معنىٰ الخلوص، يقال: حرَّ يَحَرُّ ـ كظلَّ يظل ـ ، حَرارًا ـ بالفتح ـ ، بمعنىٰ: عتق، والاسم: الحرية، والحُرُّ: خلاف العبد، والخيار من كل شيء، والفرس العتيق، والفعل الحسن.

والحُرُّ من الطين والرمل: الطيب، والحُرَّة: ضد الأَمَةِ، والحرة من السحاب: الكثيرة المطر، وتطلق علىٰ الكريمة من النساء، ووردت صفةً للنفس في كثير من أشعارهم.

قال سحيم عبد بني الحسحاس:

إن كـــنتُ عـــبدًا فنفـــسي حـــرةٌ

أو أسودَ اللونِ إني أبيضُ الخُلُقِ

وجاء لمعنىٰ استقلال الإرادة، وعدم الخضوع لسلطان الهوىٰ:

وتــرانا يــوم الكــريهة أحــرا

رًا وفي السلم للغواني عبيدا[١]

٢ ـ تعريف «الحرية» باصطلاح الصوفية:

فبعد أن بيَّن تعريف الحرية في اللغة، انتقل إلىٰ تعريفها عند الصوفية فقال: «وعليه بنىٰ الصوفية اصطلاحهم في إطلاق اسم «الحر» علىٰ من خلع عن نفسه إمارة الشهوات، ومزَّق سلطتها بسيوف المخالفة كل ممزَّق.

قال الإمام الجنيد ـ فيما روي عنه ـ : لو صحت الصلاة بغير القرآن لصحت بقول الشاعر:

أتمنـي علـىٰ الـزمانِ محـالًا أن تَـرىٰ مقلتاي طلعةَ حرٍّ[٢]

٣ ـ الحرية في الاصطلاح المعاصر:

يقرر الشيخ أن كلمة الحرية تدور علىٰ أفواه الخطباء، وتلهج بها أقلام الكاتبين ينشدون ضالتها عند أبواب الحكومات، ويقفون للبحث عن مكانها، وتمكين الراحة عن مصافحتها وقوفَ شَحِيحٍ ضاع في الترب خاتمه[٣].

---

(١) محاضرات إسلامية ص ١١ ـ ١٢.

(٢) المرجع السابق ص١٢.

(٣) انظر: المرجع السابق ص١٢.

ثم يَخْلُص من ذٰلك إلىٰ ما توصل إليه من المعنىٰ الذي صار إليه لفظ الحرية بعد تطور مدلوله اللغوي الأصلي، فيقرر أن له مدلولًا يشمل عموم الأمة، وخصوص أفرادها، فيقول: «ينصرف هٰذا اللقب الشريف ـ في مجاري خطابنا اليوم ـ إلىٰ معنىٰ يقارب معنىٰ استقلال الإرادة، ويشابه معنىٰ العتق الذي هو فكُّ الرقبة من الاسترقاق، وهو أن تعيش الأمة عيشةً راضيةً تحت ظلٍّ ثابت من الأمن، وعلىٰ قرار مكين من الاطمئنان.

ومن لوازم ذٰلك: أن يُعَيَّنَ لكلِّ واحدٍ من أفرادها حَدٌّ لا يتجاوزه، وتُقَرَّر له حقوقٌ لا تعوقه عن استيفائها يدٌ غالبة»[1].

٤ ـ الحرية فضيلةٌ وسط:

فلمزيد من تجلية مفهوم الحرية يقرر الشيخ أنها وسطٌ بين رذيلتين؛ فإن في تعدي الإنسان الحدَّ الذي قضت عليه أصول الاجتماع بالوقوف عنده ضربًا من الإفراط.

ويقابله في الطرف الآخر: حرمانه من التمتع بحقوقه؛ ليستأثر غيره بمنفعتها.

وكلا الطرفين شعبةٌ من شعب الرذائل، والحرية وسط بينهما علىٰ ما هي العادة في سائر الفضائل ـ كما يقول ـ[2].

---

(١) المرجع السابق ص١٢.

(٢) انظر: المرجع السابق ص١٢.

* ثانيًا: خصال الحرية:

يرىٰ الشيخ الخضر أَنَّ مَنْ كَشَفَ عن حقيقةِ الحرية المفصَّلةِ ستارَ الإجمال، أَشْرَفَ علىٰ أربع خصال مُنْدَمِجَةٍ في ضمنها؛ فهٰذه الخصال الأربع ـ في نظره ـ هي مقومات الحرية؛ فمتىٰ اجتمعت كانت الحرية بتمامها وعافيتها.

ومتىٰ انْتُقِضَت عروة منها، نَقَصت الحرية بقدر ما انْتُقِضَ من عراها.

وهٰذه الخصال التي ذكرها الشيخ ـ هي كما يلي:

أحدها: معرفة الإنسان ما له وما عليه:

فإن الشخص الذي يجهل حقوق الهيئة الاجتماعية ونواميسها لا يبرح في مضيق الحَجْر مُقَيَّدَ السواعد عن التصرف حسب إرادته واختياره، حتىٰ يستضيء بها خبرةً، ويقتلها علمًا؛ إذ لا يأمن أن تطيش أفعاله عن رسوم الحكمة والسداد، فيقع في خطيئة تحدث في نظام تلك الهيئة علةً وفسادًا.

ولا يخالط الضمائر من هٰذا أن الحرية مقصورة علىٰ علماء الأمة العارفين بواجباتها؛ إذ للأميِّين منها مَخْلَصٌ فسيح، وهو باب الاستفتاء والاسترشاد، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل].

ثانيها: شرف نفس يزكي طويتها:

ويُطهر نواياها من قصد الاعتداء علىٰ ما ليس بحق لها؛ فلا

ترمي بهمتها إلا في موضع تشير إليه العفة ببنانها.

ثالثها: إذعانٌ يدخل به تحت نظر القوانينِ المقامةِ على قواعد الإنصاف:

ويستنزله ريثما تحرر ذمته من المطالب التي توجه إليها باستحقاق.

رابعها: عزةُ جانب، وشهامة خاطر:

يشق بها عصا الطاعة للباطل، ويدمغ بها في قوةٍ من يسوم عنقه بسوء الضيم والاضطهاد:

ولا يقيمُ علىٰ ضَيمٍ يراد به

إلا الأذلَّانِ عيرُ الحيِّ والوَتِدُ[1]

فهٰذه هي خصال الحرية الأربع عنده.

❋ ثالثًا: قاعدتا الحرية:

يرىٰ الشيخ أن فسطاط الحرية يقوم علىٰ قاعدتين عظيمتين هما: «المشورة والمساواة»؛ **فبالمشورة تتميز الحقوق، وبالمساواة** ينتظم إجراؤها، ويطَّرد نفاذُها.

وكل واحدة من هاتين القاعدتين ـ كما يقول ـ رفع الإسلام سَمْكَها وسوَّاها[2].

---

(١) انظر: المرجع السابق ص١٣. (٢) انظر: المرجع السابق ص١٤.

ثم شرع بعد ذٰلك في تفصيلِ الكلام في كلٍّ من هاتين القاعدتين؛ فبدأ بالمشورة، وقرر أن سنة اللَّه في خلقه قضت أن سلطة شرع الأحكام وتصريف الأوامر والزواجر لا تستقل وحدها بردع الخليقة، وقيادتهم إلىٰ سابلة العدالة، وأن كثيرًا من الناس يجري مع أهوائه بغير عِنان، ولا يدخل بأعماله الاختيارية تحت مراقبة العقل علىٰ الدوام.

ثم فصَّل القول في ذٰلك، وضرب الأمثلة عليه، وقرر أن النبي ﷺ لم يكن ـ مع يقينه باستماتة الصحابة في طاعته، وتفاني مُهَجهم في محبته ـ لِيَتَفَرَّد عنهم بتدبير السلطة؛ بل يطرحها علىٰ بساط المحاورة، ويجاذبهم أطرافها علىٰ وجه الاستشارة عملًا بقوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأوضح أنه قد يترجح بعض الآراء بوحي سماوي كما نزل قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] ـ مؤيدًا لرأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أسارىٰ بدر.

وقرر أن اللَّه أذن لنبيه ﷺ بالاستشارة وهو غنيٌّ عنها بما يأتيه من وحي السماء؛ تطييبًا لنفوس أصحابه، وتقريرًا لسنة المشاورة للأمة من بعده.

ثم تطرق بعد ذٰلك لصنيع الخلفاء الراشدين في الشورىٰ، وضَرَب الأمثلة علىٰ ذٰلك، وساق شواهدَ من أحوال الأمم السالفة

في شأن الشورىٰ، وذكر جملةً من فوائد الشورىٰ؛ كتخليص الحق من احتمالات الآراء، واستطلاع أفكار الرجال، ومعرفة مقاديرها، واستشهد علىٰ ذٰلك بأدلة الشرع، وأقوال الحكماء، والشعراء[1].

ثم انتقل إلىٰ تفصيل القول في القاعدة الثانية من قاعدتي الحرية عنده ألا وهي المساواة؛ فقرر أن اللَّه خلق الناس بحسب فطرتهم متماثلين، وكذٰلك ولدتهم أمهاتهم أحرارًا متكافئين.

ولٰكن دخولهم في ملاحم الحياة الاجتماعية ينزع عنهم لباس التماثل والتساوي، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات.

ثم ساق الأدلة من الكتاب العزيز علىٰ ذٰلك، وأبان أن الشريعة الإسلامية روعي فيها فطرةُ اللَّه التي فطر الناس عليها؛ فوُضِعت تكاليفها علىٰ شكلِ التكافؤ، وأديرت سياستها علىٰ قطب المساواة؛ فلا فضل لشريف علىٰ وضيع، ولا امتياز لملِكٍ علىٰ سُوقي.

والعقوبةُ الموضوعة علىٰ صعلوك الأمة هي المحمولة علىٰ سيدها بدون فارقة؛ فلو ادَّعىٰ أبو بكر الصديق أو عمر بن الخطاب علىٰ أدنىٰ الناس وأفسقهم درهمًا واحدًا لم يُقْضَ له باستحقاقه إلا بشهادة عادلة.

وقرر أن هٰذا المعنىٰ عامٌّ في جملة الشريعة وتفاصيلها، ولا

(١) انظر: المرجع السابق ص١٥ ـ ٢١.

يبعد استفادته من قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فهٰذا المعيار وضع جميع الامتيازات، وَطَرَحَها عن محلِّ العنايةِ والاعتبارِ ما عدا التقوىٰ.

والتقوىٰ نفسُها لم يجعل الشارع لها أثرًا في تغيير الحدود أو الاحتفاظ بحق زائد من الحقوق؛ فالشريعة سابقة علىٰ العملِ، والعملُ تابعٌ لها.

وهٰكذا يفصِّلُ في هٰذه القاعدة ـ قاعدة المساواة ـ ويورد من الشواهد والأدلة علىٰ ذٰلك من الكتاب، والسنة، وسيرة السلف الصالح، وأقوال أهل العلم.

فهٰذا هو مقصوده من «المساواة»؛ إذ يراها ـ بهٰذا الاعتبار ـ قريبةً من العدل، أو مرادفةً له؛ لأنه لا يعني بها ـ مثلًا ـ المساواة بين الذكر والأنثىٰ في كل شيء، حتىٰ في بعض ما خَصَّت به الشريعة أحدهما دون الآخر؛ من كون الذكر له مثل حظِّ الأنثيين من الميراث، أو كون الصداق حقًّا للمرأة علىٰ الرجل[1].

وإنما يعني بالمساواة: المساواة العامة دون ما يختص به أحد من الناس دون أحد.

فهٰذا هو مفهوم المساواة عنده، وهي والمشورة قاعدتا الحرية اللتان قررهما فيما سلف.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٢١ ـ ٢٤.

وبهٰذا تتضح معالم الحرية عنده من حيث تعريفها، وحدودها، وخصالها، وقاعدتاها.

❁ المطلب الثاني: أنواعُ الحرية ❁

من أشد ما عني به الشيخ الخضر رَحِمَهُ اللَّهُ في قضية الحرية عنايته بأنواع الحرية؛ فهو يرىٰ أن الحرية الحقَّة ليست مقتصرةً علىٰ نوع واحد فحسب، وإنما يراها منهجًا عامًّا ينضوي تحته ضروبٌ عدة من الحريات الحقة.

والحديث في هٰذا المطلب سيتناول ما قرره من تلك الأنواع التي يرىٰ أنها من صميم الحرية؛ فإلىٰ بيان ذٰلك بشيء من البسط والإيضاح:

❁ أولاً: الحرية في الأموال:

فهو نوع عظيم من أنواع الحرية، والشيخ يرىٰ أن الحرية في الأموال تعني «إطلاق التصرف لأصحابها يذهبون في اكتسابها، والتمتع بها علىٰ الطريق الوسط؛ دون أن تُلمَّ بها فاجعة اغتصاب، أو تتخطفها خائنة كيد واحتيال»[(١)].

وهٰذا البيان الذي قرره اقتضىٰ منه إجراء البحث في ذٰلك في أربعة مطالب، وهي كما يلي:

١ ـ اكتساب الأموال:

حيث قرر ـ بعد أن تطرق لأهمية المال، وكون النفوس مجبولةً

(١) المرجع السابق ص٢٤.

علىٰ حبه ـ أن لا حرج في جمع الدنيا من الوجوه المباحة، ما لم يكن صاحبها عن الواجبات في شغل شاغل.

ثم شرع بعد ذٰلك في تفصيل هٰذا المطلب، وذِكْرِ الأدلة والشواهد عليه[١].

٢ ـ الطريق الوسط:

فقرر في ذٰلك أن الشريعة لم تغادر صغيرةً ولا كبيرةً من وجوه التصرفات في الأموال إلا أحصتها، وعلقت عليها حكمًا عادلًا، وأن أحكام هٰذه الوجوه تألفت في سلك المناسبة مرتبةً علىٰ أبواب، وأن المملوكات إما أعيان، أو منافع[٢].

ثم شرع في تفصيل ذٰلك، وتفريعه بكلام مؤصل ختمه بقوله: «فإذا أنت تدبرت هٰذه الأبواب المدونة، ودققت النظر في أحكامها المفصلة؛ لتعلم أين مكانها من الإصلاح والنظام ـ ظفرت فيها بنظامات محكمة، وأصول عمرانية، لا تصل الناس إلىٰ السعادة الاجتماعية، والمعاملة بشرف وفضيلة إلا من طريقتها الوسطىٰ»[٣].

٣ ـ التمتع بها:

فقرر أنه كما أذن الإسلام في اكتساب الأموال، واستثمار

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٢٤ ـ ٢٦.
(٢) انظر: المرجع السابق ص ٢٦ ـ ٢٨.
(٣) المرجع السابق ص ٢٨.

أرباحها في وجوهها المعتدلة ـ أذن في الاستمتاع بها، وترويح الخاطر بنعيمها علىٰ شريطة الاقتصاد[١].

ثم شرع في تفصيل هٰذا المطلب، وذِكْر الشواهد عليه من الكتاب والسنة، ومن سيرة السلف الصالح، وتاريخ ولاة المسلمين، وختمه بقوله: «وقد كان المتعبدون مِنْ قَبْلُ يترهبون بالتخلي عن أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والعزلة عن أهلها، وتعمد مشاقها، فنفاها النبي ﷺ، ونهىٰ المسلمين عنها، فقال: «**لا رهبانية في الإسلام**»[٢].

وتدبَّر إن شئت قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

فقد تبين بهٰذه الآية أن الزينة من علائق العبادة، غير منافية لها، وأن العبادة لا تستدعي الإعراض عن اللذات الحسية المعتدلة»[٣].

٤ ـ الاعتداء عليها:

فقرر هناك أن من الطبائع المركبة في نفوس البشر داعيةَ حبِّ المال، والحرص علىٰ مكتسبها واقتنائها، وأطال في ذٰلك، وقرر

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨.

(٢) أخرجه الدارمي (٢١٦٩) بلفظ: «إني لم أؤمر بالرهبانية»، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٩٣): «وهٰذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات».

(٣) محاضرات إسلامية ص ٣٢ ـ ٣٣.

خلاله أن الشريعة جاءت بمجملها ومُفَصَّلها بما يقطع الطريق علىٰ كل من تسول له نفسه اختلاس الأموال، أو اغتصابها، أو التصرف فيها بغير ما يأذن به صاحبها.

وقرر أن مما يدخل في هٰذا: النهي عن الرشوة، فأبان أنه لما كانت الرشوة عقبةً كؤودًا في سبيل الحرية أخذت الشريعة في تحريمها بالتي هي أحوط.

وقرر ـ أيضًا ـ أن الشارع الحكيم لم يكتف «في النهي عن اغتصاب الأموال واختلاسها بما قرع به الأسماع من الزواجر الكلية، فأردفها بتعليمات عمرانية في مواضيع غامضة تقصر عقول البشر عن إدراكها بدون توقيف وتعليم؛ مثل: المعاملة بالربا، فقد يتوهم سلامتها من أكل المال باطلًا، وهي معدودة في قبيلِهِ، غير خارجة عن معناه»[1].

ثم تطرق بعد ذٰلك للعقوبات المتعلقة بالجناية علىٰ الأموال، وجعلها أربعة أنواع: عقوبة السارق، وعقوبة من يخيف السبيل، ويشهر السلاح؛ لأخذ المال باطلًا ـ وهو المحارب ـ ، وعقوبة المعتدي بغير السرقة ـ كالغاصب ـ ، وعقوبة المتلف لمال غيره.

ثم فصَّل الكلام في هٰذه العقوبات واحدة واحدة[2].

فهٰذا مجمل ما تناوله من النوع الأول من أنواع الحرية، وهو الحرية في الأموال.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥. (٢) انظر: المرجع السابق ص ٣٦ ـ ٤٠.

❁ ثانيًا: الحرية في الأعراض:

وقد قرر في هٰذا النوع أن كل امرئ أومضت فيه بارقةٌ من العقل يتمنىٰ أن يكون عرضُه محلَّ الثناء والتمجيد، وحَرَمًا مصونًا لا يرتع حوله اللامزون، وأن هاتِه الإرادةَ هي التي تبعثه علىٰ أن يبدد فريقًا من ماله في حَلِّ عقالِ ألسنة؛ لِتَكْسُوَه من نسج آدابها حلة المديح، أو يسد به أفواهًا يخشىٰ أن تصب عليه من مرائر أحدوثتها علقمًا.

وأن الناس لا يتفاضلون في الشرف والمجادة وتتسفل هممهم إلىٰ هاوية الرذيلة إلا بمقدار ما تجد بينهم من التفاوت في عقدة هٰذه الإرادة قوةً وانحلالًا.

كما يقرر هنالك أنه لا يحق للطاعن أن يتخطىٰ المعائب ـ التي يجهر بها صاحبها ـ إلىٰ النقائص التي يحرزها بغطاء الستر والكتمان[1].

ويلفت النظر ـ كذٰلك ـ إلىٰ ناحية من نواحي الحرية، وهي ما يسلكه أهل الصحافة في أرباب الولايات من تتبع مناكرهم، وعرض مظالمهم علىٰ أنظار الحكومة، وأن هٰذا داخل في قبيل النصيحة؛ ولٰكن علىٰ شريطة التجرد من الأغراض الشخصية، والتحقق من صحة ذٰلك بإسناده إلىٰ حجة قوية مع اللطف في العبارة.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٤١ ـ ٤٢.

ويرىٰ أن صنيعهم بهٰذا الشرط يدٌ شاملة يطوِّقون به جِيْدَ الأمة، ويدينون بها الحكومة العادلة.

وتطرق في هٰذا السياق إلىٰ أن مثل هٰذا في الإباحة تمكينُ الخصوم من إثبات الجرحة في الشهود، وما يقوم به علماء الحديث من نقد الرواة؛ فَفَصَّلَ القولَ في ذٰلك، ثم قرر أن الجناية في الأعراض غير منضبطة، بل تختلف آحادها اختلافًا كثيرًا؛ فرُبَّ صفةٍ يُنعت بها رجلٌ؛ فلا تحط من شأنه، وتَعْلَقُ علىٰ آخر؛ فتنقلب سبابًا؛ ومن أجل ذٰلك لم تضع الشريعة بإزائها عقوبةً محدودةً، وفوضت تعيينها وتقديرها إلىٰ اجتهاد الحاكم.

وتعرض من خلال ذٰلك إلىٰ عقوبة حد القذف بالزنا، وما يترتب عليها، وكذٰلك قذف الرجلِ زوجتَه؛ فبيَّن الحكم في ذٰلك علىٰ نحوٍ مُفَصَّل.

كما قرر أن كثيرًا من أحكام الشريعة مبنيٌّ علىٰ مبدأ صيانة الأعراض، وضرب مثالًا علىٰ ذٰلك برعاية الكفاءة في الزواج، وأن الكفاءة في المعاشرة بين الزوجين يؤثر شَغبًا واضطرابًا؛ بسبب فخار المرأة وتطاولها[1].

*** ثالثًا: الحرية في الدماء:**

وقد قرر في هٰذا النوع من أنواع الحرية أن العمرانيين ينظرون

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٤٣ ـ ٤٥.

إلىٰ الأمة التي تجمعها رابطة، فيشاهدونها في صورة جسم واحد، وأفرادها هي أعضاؤه المتلاصقة، وليس سفك دم الفرد منهم إلا كالفصد لعرق من عروقها، واستفراغ دمه الذي هو بضعة من حياتها.

والقصاص من القاتل ـ وإن كان فصدًا لعرقٍ ثانٍ من ذٰلك الجسم العظيم ـ إلا أنه بمبضع طبيب عارف يخشىٰ أن يسري دمه الفاسد إلىٰ غيره من الأعضاء، فيحدث فيها مرضًا عضالًا.

قال اللَّه ـ تعالىٰ ـ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩](١).

ثم أفاض في ذكر بعض حِكَم القصاص، وأنه إذا كان مقصورًا علىٰ القاتل فاز الباقون بالحرية في حياتهم، واطمأنوا بها.

وأوضح أن القصاص يجري في الجراحات والجناية علىٰ الأطراف.

وأن الشريعة ـ لمكانة العناية بحفظ الدماء ـ بُنيت أحكامها علىٰ أساس الاحتياط؛ حتىٰ لا يجد الأشقياءُ ذريعةً إلىٰ إهدارها، «ومن هٰذا اتفق الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ علىٰ قتل الجماعة الكثيرة بالواحد ـ وإن كان القصاص يقتضي المساواة ـ ، وقتل عمر بن الخطاب سبعةً من أهل صنعاء، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء، لقتلتهم به.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٤٦.

ويُقْتَصُّ ممن قَتَلَ في حال سُكرٍ ـ وإن لم يكن متعمدًا ـ ؛ لئلا يُتخذ السُّكرُ وسيلةً إلىٰ إنهار الدماء في سبيل الأغراض»[١].

ثم تكلم علىٰ شرعِ الإسلامِ الديةَ؛ تخفيفًا ورحمةً، وأقامها مقام القصاص إذا رضي بها أولياء الدم، وآثروها علىٰ الأخذ بالثأر؛ فقد تكون الدية أصلحَ لهم من القصاص، وأجدىٰ نفعًا، وزيادةً عما فيها من إبقاء نفس مسلمة تتناسل ذريتها في الإسلام.

ثم تكلم عن حكم القتلِ خطأً، وأن الدية تُفرض علىٰ عاقلة القاتل.

وانتقل بعد ذٰلك إلىٰ بيان حرمة الدماء، وأنه لا يحل دم امرئ إلا لأسباب تكون الفتنة فيها أشدَّ من القتل، ومثَّل لذٰلك بالزنا من المحصن، وبيَّن حِكَم ذٰلك القتل بشيء من البسط[٢].

*** رابعًا: الحرية في الدين:**

وقد أوضح في هٰذا النوع أن الإسلام «قرر في معاملة الأمم ـ التي يضمها تحت حمايته ـ حقوقًا تضمن لهم الحرية في ديانتهم، والفسحة في إجراء أحكامها بينهم، وإقامة شعائرها بإرادة مستقلة؛ فلا سبيل لأولي الأمر إلىٰ تعطيل شعيرة من شعائرهم، ولا مدخل للسلطة القضائية في فصل نوازلهم الخاصة؛ إلا أن يتراضوا عن المحاكمة أمامها، فتحكم بينهم علىٰ قانون العدل

(١) انظر: المرجع السابق ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٤٧ ـ ٤٨، وانظر: السعادة العظمىٰ ص٩٨.

والتسوية، قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢].

وإبقاء المحكومين علىٰ شرائعهم وعوائدهم منظر من مناظر السياسة العالية، وباب من أبواب العدالة، يدخلون مِن قِبَلِه إلىٰ أكناف الحرية»[(١)].

ثم انتقل إلىٰ مظهر من مظاهر الحرية في الدين، وهو أن الإسلام أحلَّ للمسلم أن يتزوج المرأةَ من أهل الكتاب، مع استمرارها علىٰ دينها، والتمسك بعقائدها، ولا يسمح له بهضيمتها في أمر تتديَّن به، أو انتقاصها حقًّا من حقوق الزوجية؛ بل تُقاسِمُ فيها امرأتَه المسلمةَ قسمةً عادلة[(٢)].

ثم قرر أن الإسلام يمنح للمسلم أن يعطي لغير المسلم عهدًا بتأمينه، وأنه لا مساغ لأحدٍ بعد ذٰلك في نقض ميثاقه، أو تبدُّل شرطه، بل يُحَتِّم السعي في تأكيده، ورعايته، واستدل علىٰ ذٰلك بقول النبي ﷺ: «**إن المسلمين يسعىٰ بذمَّتهم أدناهم**»[(٣)].

وقرر بعد ذٰلك أن من نظر إلىٰ أبواب الشريعة، أبصر في

---

(١) محاضرات إسلامية ص ٤٨ ـ ٤٩، وانظر: السعادة العظمىٰ ص٩٨.

(٢) انظر: محاضرات إسلامية ص ٤٩، وانظر: معاملة الزوجة الكتابية في ضوء العقيدة الإسلامية د.علي بن موسىٰ الزهراني، الذهبية للإنتاج الإعلامي، مصر، ط١، ص١٩ ـ ٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٧٥١) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأحمد (٩٩١) والنسائي (٤٧٣٥) كلاهما من حديث علي رضي الله عنه.

جملتها أحكامًا كثيرةً مبنيةً علىٰ التسامح مع غير المحاربين كأبواب الهبة، والوقف، والوصية التي نستفيد من أحكامها أن الإسلام «لم يقتصر علىٰ إباحة معاملتهم بمعاوضة، بل أجاز للمسلم أن يهب جانبًا من ماله، أو يوقفه، أو يوصيَ به لبعض أهل الذمة، ويجب تنفيذه، والقضاء بصحته، وأحل لنا طعام الذين أوتوا الكتاب، وأن نطعمهم.

قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وأمر بالإحسان إليهم، والرفق بضَعْفهم، وسد خلة فقرهم، ولين القول لهم علىٰ سبيل اللطف والرحمة، واحتمال إذايتهم في الجوار علىٰ وجه الكرم والحلم، وحرَّم الاعتداء عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبةٍ في عرض أحدهم»[(١)].

ثم انتقل إلىٰ تشديد الإسلام العقوبةَ علىٰ من ارتد عن الدين بعد أن لبس هديه القويم؛ فأمر بدعوته إلىٰ الإنابة والتوبة، فإن رجع وإلا ضُرب بالسيف علىٰ عنقه.

ثم ذكر حِكمًا عدةً من قتلِ المرتد، منها الحذر من تفرق الوَحدة، واختلال النظام، وزَجْرُ مَنْ يريد الدخول في الدين مشايعةً للدولة، ونفاقًا لأهله، وباعثٌ علىٰ التثبت؛ فلا يتقلد الدين إلا علىٰ بصيرة وسلطان مبين[(٢)].

---

(١) محاضرات إسلامية ص ٥٠. (٢) المرجع السابق ص٥٠ ـ ٥١.

ثم بيَّن أسباب الردة فقال: «وأنت إذا جئت تبحث عن حال من ارتدوا بعد الإسلام، لا تجد سوىٰ طائفتين: منهم من عانق الدين منافقًا، فإذا قضىٰ وطره، أو انقطع أمله انقلب علىٰ وجهه خاسرًا.

وبعضهم رُبِّي في حجور المسلمين، ولٰكنه لم يدرس حقائق الدين، ولم يتلقَّ عقائده ببراهين تربط علىٰ قلبه؛ ليكون من الموقنين؛ فمتىٰ سنحت له شبهة من الباطل تزلزلت عقيدته، وأصبح في رَيْبِه مترددًا.

وارجع بصرك إلىٰ التاريخ كرَّتين؛ فإنك لا تعثر علىٰ خبر ارتداد مسلم نبت في بلد طيب نباتًا حسنًا»[1].

❁ خامسًا: الحرية في خطاب الأمراء:

وتحت هٰذا النوع من الحرية أوضح أنه «لا يخفىٰ علىٰ مُتَشَرِّع بصير أن المُلك والدين أخوان، يشد كل منهما بعضد الآخر، بل الدين رائد للمُلك، والمُلك تابع للدين، خادم له.

وإن شئت فقل: هما كمثل إنسان، الدين عقله المدبر، والملك جسمه المسخَّر له، وذٰلك الإنسان هو ما نسميه الآن بالإسلام؛ فبمقدار ما ترتبط الإدارة السياسية بالإدارة الدينية يكمل شبابه، وتجري روح الاستقامة في أعضائه، فتصدر أعماله قرينة الحكمة، سالمةً من العيوب.

---

(١) المرجع السابق ص٥١.

ومتىٰ انفكت أولاهما عن أخراهما، انحلت حياته، وتناثرت أجزاؤه»[١].

وقرر أن موضع العناية، ومحل القصد من الإمارة في نظر خلفاء الإسلام الراشدين ومن حذا حذوهم ـ هو خدمة الدين، وأنه لما انطوت أحشاؤهم علىٰ هٰذا المقصد الجميل أطلقوا سراح الرعية في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وإحضارهم النصيحة، وأنهم كانوا يوسِّعون صدورهم للمقالات التي توجَّهُ إليهم علىٰ وجه النصيحة، والتعريض بخطأ الاجتهاد، وإن كانت حادةَ اللهجة قارصةَ العبارة.

وساق أمثلة علىٰ ذٰلك من سيرة أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ تؤكد ما أشار إليه[٢].

ثم قرر بعد ذٰلك أنه خلف بعد أولٰئك خَلْفٌ عرفوا أن فطرة الدين وطبيعته لا تتحمل شهواتهم العريضة، وأنهم ألِفُوا بلاط الملك فسيح الأرجاء، بعيدَ ما بين المناكب، ولٰكنه لا يساعفهم علىٰ أغراضهم وتتبع خطواتهم ما دامت أوصاله ملتحمةً بالإدارة الدينية؛ فلم يهتدوا حيلةً إلىٰ فارقٍ بينهما سوىٰ أن يسدوا منافس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون دعاة الإصلاح، وابتكروا ضروبًا من الخسف وأفانين من الإرهاق كانوا يهجمون بها علىٰ

(١) محاضرات إسلامية ص ٥٢.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٥٢ ـ ٥٣، والهداية الإسلامية ص٨٢.

الناس هجوم الليل إذا يغشىٰ.

وإذا سمعوا مناديًا؛ ليُحق الحق ويبطل الباطل، كلموه بألسنة السيوف[١].

إلىٰ أن قال بعد ذٰلك: «ولما أَبَقَ المُلكُ من حضانة الدين، وخفقت عليه راية الاستبداد ـ خالط الأفئدةَ رعبٌ وأوجال كأنما مُزِجت بطينتها؛ فبعد أن كان راعي الغنم يفد من البادية، وعصاه علىٰ عاتقه، فيخاطب أمير المؤمنين بـ: «يا أبا بكر، ويا عمر، ويا عثمان»! ويتصرف معه في أساليب الخطاب بقرارة جأش، وطلاقة لسان، وسكينة في الأعضاء ـ أصبح سيدُ قومه يقف بين يدي أحد الكبراء في دولة الحَجَّاج، فينتفض فؤاده رعبًا، ويتلجلج لسانه رهبةً، وترتعد فريصته وجلًا، يخشىٰ أن يكون فريسةً لبوادر الاستبداد»[٢].

❋ سادسًا: حرية الدعوة:

وقد أفرد لهٰذا النوع مقالًا خاصًّا عنوانه: «حرية الدعوة دليل علىٰ رقيِّ الأمم وعظمة الدولة».

وقد استهله بقوله: «أطيب الأمم حياةً: أمة تجد الدعوةُ إلىٰ الحق بينها طرقًا معبدة، فتذهب مطلقةَ العنان دون أن تعترضها

---

(١) انظر: محاضرات إسلامية ص ٥٣ ـ ٥٤، والهداية الإسلامية ص٨٣.

(٢) محاضرات إسلامية ص٥٤، ودراسات في الشريعة الإسلامية للشيخ محمد الخضر حسين ص١٢٩.

عقبات.

وإنما تملك دعوةُ الحقِّ حريتها في ظلال دولةٍ تسير في سياستها علىٰ رشد، ولا غايةَ لها إلا أن ترعىٰ أمةً عزيزةَ الجانب، نبيهة القدر»[١].

ثم قرر أن المخلصين من أولي الأمر يدركون أن لا فلاح لأمةٍ إلا بالدعوة، فينظرون إلىٰ دعاة الإصلاح بارتياح وإكبار، وأن الدعاة يدركون أن فتح باب الحرية في وجه الدعوة شأنُ الدولة التي تريد بأمتها خيرًا؛ فتألفها قلوبهم، ويبذلون في تنبيهها لوجوه الإصلاح جهدَهم.

وقرر: أن الدعوة إلىٰ الحق ميزان الحرية الصادقة، ودليل رقي الشعب؛ فإذا رأيت الدعوة تغشىٰ كل موطن، وتطرق كل سمع، فاعلم أن الحرية باسطةٌ أجنحتها، وأن الشعب سائرٌ إلىٰ حياة راضية.

ثم التفت إلىٰ الماضي، وبيَّن أن الدعوة كانت تَرِدُ مجالس بعض الرؤساء؛ فيفسح لها، ويتلقاها بأذن واعية[٢].

ثم يضرب أمثلة لغير العهود المعروفة ـ غير عهود الخلفاء الراشدين ـ فيقول: «ومن العهود التي حظيت فيها الدعوة بحريتها الضافية: عهد الخليفة عبدالرَّحمٰن الناصر بالأندلس؛ فكان العلماء

(١) الدعوة إلىٰ الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ص٦٩.
(٢) انظر: المرجع السابق ص ٦٩ ـ ٧٠.

في عهده يأمرون بالمعروف، وينهَون عن المنكر، ويحكمون بما أنزل اللَّه، لا يخافون لومة لائم.

وكثيرًا ما يوجِّهون أمرَهم ونهيهم إلىٰ الخليفة نفسه، فيتلقىٰ دعوتهم بالرضاء، ولا تحدِّثه نفسه بأن يلحق بهم أذًىٰ، أو يقطعهم عن القيام بواجبهم، أو ينقصهم مثقال ذرة من الإجلال اللائق بمقاماتهم.

وكان منذر بن سعيد البلوطي ـ قاضي قرطبة ـ يواجهه بإنكار بعض أفعاله الخاطئة، وربما اشتد في لهجةِ الإنكار.

وكان في مقدور الناصر أن يناله بأذًىٰ، ولٰكنه عرف إخلاص منذر؛ فتلقىٰ إنكاره بأناة وسكينة»[1].

ويضرب مثالًا آخر بعهد أبي جعفر المنصور، فيقول: «ومن العهود التي أخذت فيها الدعوة حريتها: عهد أبي جعفر المنصور، وأذكر أنه وفد إليه عبدالرَّحمٰن بن زياد من القيروان، فلما جلس إليه قال له المنصور: كيف رأيت ما وراء بابنا؟ قال: رأيت ظلمًا فاشيًا، وأمرًا قبيحًا!!.

قال له أبو جعفر: لعله فيما بَعُد عن بابي، قال: بل كلما قربت استفحل الأمر وغلُظ.

قال: ما يمنعك أن ترفع ذٰلك إلينا وقولك عندنا مقبول؟ قال: رأيت السلطان سُوقًا، وإنما يرفع إلىٰ كل سوق ما يَنفُقُ فيها.

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠.

فأثَّرتْ في أبي جعفر الموعظة، حتىٰ اغرورقت لها عيناه»[١].

ثم يذكر بعض العهود التي حُرِمت من رؤساء تتسع صدورهم لسماع كلمة الحق؛ فيقع التدافع بينهم وبين الدعاة.

ويذكر أنه قد يتولىٰ أمرَ الجماعةِ رحيبُ الصدرِ العارفُ بما تأتي به الحرية الصادقة من الفوائد العظيمة.

ولٰكن ترىٰ طائفةً مِنْ شأنِهم الدعوةُ إلىٰ الحق في خمول وانزواء.

ويقرر أنه إذا كان الصمت في عهد المستبدِّ قبيحًا، فهو في عهد من يوسع صدره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد قبحًا[٢].

ثم بيَّن واجب دعاة الإصلاح في صرف الجهد في معالجة المنحرفين عن السبيل.

ويختم الكلام في ذٰلك بقوله: «والغاية التي نرمي إليها في هٰذا المقال: أن الأمة التي تحظىٰ بالحياة الطيبة في دنياها وآخرتها، هي الأمة التي تنبت أرضُها رجالًا تتَّقدُ قلوبهم غيرةً علىٰ الحق، ويكون القابضون علىٰ أمرها رجالًا لا يعترضون دعوة الإصلاح، وإن نَسَبَتْ إليهم عوجًا في سيرتهم، أو نبهتهم لخطأ في سياستهم»[٣].

---

(١) المرجع السابق ص ٧١.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٧١ ـ ٧٢. (٣) المرجع السابق ص ٧٢.

❁ سابعًا: حرية البحث والاستقصاء:

وقد أشار إلىٰ هٰذا النوع من الحرية في معرض رده علىٰ طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي»؛ وذٰلك عندما قال: «فلنصطنع هٰذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه، وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل، وخلصنا من هٰذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ بأيدينا وأرجلنا ورؤوسنا؛ فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة ـ أيضًا ـ »[1].

فعقب عليه الشيخ الخضر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «ليس في الأدب العربيِّ أغلال تشد علىٰ طلابه، فتحول بينهم وبين حركاتهم الحرة جسميةً كانت أو عقلية، وطالما تناولته أنظارٌ ذهبت في البحث كل مذهب، فأماطت عن طريقه أذًىٰ كثيرًا، ثم أبقت باب النقد من ورائها مفتوحًا علىٰ مصراعيه؛ فمن ساعده قانونُ البحث علىٰ طرح قسم آخر من حسابه بسطوا له وجهًا رحبًا، ونسجت له ألسنتهم الصادقة شكرًا خالدًا.

فللمؤلف أن يحرك جسمه وعقله كيف يشاء، وله أن يتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء، وله أن يستقبلهما بعد أن يبرئ نفسه من كل ما قيل فيهما من قبل.

وما عليه إلَّا أن يعلم أن للبحث في العلوم قوانين لا يسع

---

(١) في الشعر الجاهلي لطه حسين ص١٢.

«ديكارت» إلا أن يؤمن بها، وأن من وراء جدران الجامعة المصرية أقلامًا تغار علىٰ الحقيقة أكثر من غيرته علىٰ الشك فيما يراه الناس حقًّا»[١].

وقال الشيخ الخضر ـ أيضًا ـ في خاتمة كتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»[٢] ـ مشيرًا إلىٰ هٰذا النوع من الحرية ـ : «إننا أمة

---

(١) نقض كتاب في الشعر الجاهلي للشيخ محمد الخضر حسين ص٤٤.

(٢) هٰذا الكتاب أحد روائع الشيخ محمد الخضر حسين، وكتبِهِ الخالدةِ التي ظهر فيها فضله، وتَجَلَّتْ عبقريته، وقوةُ عارضته، وتفننُه في العلوم.
وقصة هٰذا الكتاب تبدأ ولا تكاد تنتهي؛ إذ هي قصة ذات ذيول طويلة لا تزال تثار إلىٰ يومنا هٰذا، ولا يكاد يُذْكر طه حسين إلا ويذكر كتابه «في الشعر الجاهلي»، ويذكر معه نقض الشيخ الخضر له.
ولقد وقع كتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» موقع الرضا، والقبول، والإعجاب عند كافة الطوائف، وعُدَّ وثيقةً مهمةً مفيدةً لدارسي الأدب الجاهلي ـ وخاصة المهتمين منهم بقضية الشك في شعر العرب الجاهليين ـ ؛ لما قدمه الشيخ الخضر من حجج قوية لغوية، وتاريخية، وأدبية خلال نقاشه لكتاب طه حسين، وما أبداه من نزاهة، واعتدال؛ فكان لهٰذا الكتاب ما كان من التقدير والمكانة عند علماء الإسلام المعاصرين، والأدباء العرب البارزين.
بل إن الدكتور طه حسين أسرَّ إلىٰ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في إحدىٰ لقاءاته معه: «أن رد الشيخ محمد الخضر حسين من أهم الردود وأشدها حجة».
انظر: تفصيل القصة كاملةً لذٰلك الكتاب في مواضع عدة في الرسالة الأصل: «منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقدية والفكرية» ص ١٥٩ ـ ١٦٤ و٤٩٠ و٥١٦ ـ ٥١٧ و٥٢٠ ـ ٥٢٤ و٥٤٢ ـ ٥٤٤ و٥٦٣ ـ ٥٧١ و٥٨٠ ـ ٥٨٥ و٩٤١.

بحث ونظر: نذهب مع العلم كل مذهب، ولا نقف لحرية الفكر في طريق، وإنما نحن بشر، والبشر تأبىٰ قلوبهم إلا أن تزدري أقلامًا تثب في غير علم، وتحاور في غير صدق، وإنما نحن بشر، والبشر تأبىٰ لهم أقلامهم إلا أن تطمس علىٰ أعيُن الكلمات الغامزة في شريعة محكمة أو عقيدة قيمة»[1].

فهٰذه سبعة أنواع للحرية، طالما أبدىٰ الشيخ حولها وأعاد سواء في مقالاته، أو محاضراته، أو ردوده.

(١) نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٤٤٤.

المبحث الثالث

موقفه من الحرية الحقة ومن حرية الفوضى

❁ المبحث الثالث ❁

موقفه من الحرية الحقة وحرية الفوضى

تبين في المبحثين الماضيين ما قام به الشيخ الخضر من تأصيل علمي لقضية الحرية، وما قام به من جهدٍ لبيان مفهوم الحرية، وحدودها، وأنواعها، وما جرىٰ مجرىٰ ذٰلك.

والحديث في هٰذا المبحث سيتناول موقِفَه من الحرية الحقة التي قررها، وارتآها، وموقفَه من الحرية غير المنضبطة؛ وهي حرية الفوضىٰ.

وذٰلك من خلال المطلبين التاليين:

المطلب الأول: وقوفه مع الحرية الحقة.

المطلب الثاني: وقوفه ضد حرية الفوضىٰ.

* * *

❁ المطلب الأول: وقوفه مع الحريَّة الحقَّة ❁

منذ أن تفتحت عينا الشيخ الخضر رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الدنيا، وهو يرىٰ الجنودَ الأغرابَ يجوسون خلال دياره، ويعتدون علىٰ الأعراض، والأرواح، والأموال، وينشرون المهانة والذلة، والإرهاب، ويسعون سعيهم لزحزحة الأمة عن دينها، ولغتها، وهُويتها.

ويرىٰ - مع ذٰلك - أعوان الاستعمار من بني جلدته ممن يُؤْثِرون مصالحهم الخاصة، ومآربهم الخبيثة علىٰ مصالح الأمة.

وفي ظل ذٰلك الجو الخانق كان الاستبداد والاستعباد جاثمين علىٰ صدر الأمة؛ ولم يكن أحدٌ ليجرؤ علىٰ أن ينبس ببِنتِ شفةٍ في وجه ذٰلك المستعمر الغاشم.

وفي تلك الأثناء يتقدم عَالِمٌ زيتونيٌّ شابٌّ هادئُ الطبع، حسنُ السمت، لا يكاد ينطق إلا همسًا، فيعتلي منبر الخطابة؛ ليفجر قنبلةً طالما أقضت مضاجع الاستعمار؛ ألا وهي الحديث عن الحرية، ذٰلك الحديث الذي يسوء المستعمر وينوؤه.

ولا ريب أن من يتصدىٰ لتلك المهمة مُخاطِرٌ بنفسه، غير مبالٍ بما يؤول إليه الأمر.

وهٰذا ما كان من الشيخ الخضر في تلك الليلة المشهودة في تاريخ تونس، ومطلع كفاحها، وذٰلك في يوم السبت (١٧ ربيع الثاني عام ١٣٢٤هـ)، حيث انتظمت جموعُ الناس الظامئةُ إلىٰ

العدالة، والحق، في نادي «جمعية قدماء الصادقية» في مدينة تونس؛ لينصتوا إلىٰ ذٰلك العالم الشاب الذي يلقي محاضرته الشهيرة «الحرية في الإسلام»؛ فيطرح علىٰ الجماهير حقيقة الحرية، والشورىٰ، والمساواة، والحرية في الأموال، والأعراض، والدماء، والدين، وخطاب الأمراء، ويتحدث عن آثار الحرية، وآثار الاستبداد... إلىٰ غير ذٰلك من العنوانات الثائرة المؤلمة للمستعمرين وأعوانهم.

ثم ما تبع تلك المحاضرة من آثار عميقة في ضمير الأمة، وتداولِ ما طرح فيها في المسامرات والنوادي، والألسنة، ثم بعد أن طبعت انتشرت بين الناس، وأضاءت علىٰ الأمة شموس الحرية[1].

ولم يقتصر أثرها علىٰ تونس؛ بل تعدت شهرتها إلىٰ ما هو أبعد من ذٰلك، حيث تناولها العلماء، والمثقفون، والقادة في البلاد العربية وغيرها بالقبول، والثناء والتقريظ، وقد مضىٰ ذكر لشيء من ذٰلك.

وممن احتفىٰ بها الأستاذ محمد كرد علي صاحب «جريدة المقتبس» التي نشرت تقريظًا مطنبًا لرسالة «الحرية في الإسلام»، وقالت في صدر ذٰلك التقريظ: «تنم معظم تآليف التونسيين الأخيرة علىٰ فضل علم وأدب، وإن خاصتهم لا يؤلفون ـ في

(١) انظر: جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية ص٧ ـ ٩.

الغالب ـ إلا إذا اعتقدوا، واعتقد الناس فيهم الكفاءة العلمية»[١].

ويذكر الشيخ الخضر أنه لما كان في الشام واجه واليَها في ذٰلك الحين ـ وهو ناظم باشا ـ للتفاهم معه في حاجة تخص العائلة.

يقول الشيخ الخضر: «فكانت التحيةُ بيننا أولًا إشارةً باليد، ثم تقدم الفاضل السيد محمد بن شطه الجزائري؛ ليترجم بيني وبينه، وكانت المخاطبة بينهما باللسان الفرنساوي؛ إذ كان لا يحسن النطق بالعربية، وذكروا أنه يقرأ بها، ويفهم جيدًا.

وقال له السيد محمد بن شطه في التعريف بشأني: هٰذا مؤلف رسالة «الحرية في الإسلام»، وأخبرني أنه كان قد اطلع عليها؛ فنهض قائمًا، ومد يده لمصافحتي، وأعطىٰ عبارةً في الشكر علىٰ تأليفها»[٢].

لذا أصبح الشيخ بعد تلك المحاضرة مطلوبًا من السلطة، مراقبًا من عيون الاستعمار الفرنسي الذي أعلن عليه حربًا تمثلت في عدد من الإجراءات الإدارية، وعلىٰ رأسها مَنْعُه من الحصول علىٰ مَرْتَبة الطبقة الأولىٰ للمدرسين في جامع الزيتونة.

يقول ابن أخيه الأستاذ علي الرضا الحسيني: «لم تكن فرنسا المحتلةُ عاجزةً عن القبض عليه، ولم تكن يدُها قصيرةً عن

(١) الرحلات ص٨٦.
(٢) المرجع السابق ص٨٣.

اغتياله علىٰ غفلة، أو إعدامه ـ كما فعلت بالآلاف من الناس، ولأسباب تفتعلها ـ.

والرأي عندي أن كُلًّا من حكومة الاستعمار وحكومة العبيد لم تلجأ إلىٰ هٰذا الأسلوب؛ للمكانة العلمية الباهرة التي كانت تحيط بالإمام في أعين طلابه ومحبيه ومعارفه، وللمركز المرموق الذي كان يتمتع به بين علماء الزيتونة.

وإن المستعمر الفرنسي والحاكم الذليل كانا حريصين علىٰ عدم المساس بالشعور الديني؛ لأن أية محاولة من هٰذا القبيل تشعل نار أحداثٍ داميةٍ هما في غنًىٰ عنها».[١]

إلىٰ أن يقول: «إذًا لا بدَّ أن تكون المجابهة مع الإمام المجاهد في الخفاء، وعلىٰ مراحلَ يمكن تلخيصها وإيجازها بالحؤول دون وصوله إلىٰ الطبقة الأولىٰ من المدرسين في جامع الزيتونة، رغم كفاءته العلمية التي شهد بها شيوخه والعلماء المنصفون.

إلا أن بعض الذين انتُدبوا لامتحانه، وبتوجيه من السلطة مَنعوا قبوله في عداد الطبقة الأولىٰ.

وأقوىٰ سلاح يُشهر في وجه العالم: أن يَضِيْقَ به ميدانُ العلم، ويضربَ الجَهلةُ من حوله القيود والسدود، ولا يجدُ سبيلًا للانطلاق في الحياة العلمية إلىٰ أقصىٰ غاية»[٢].

---

(١) انظر: جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية ص١٠ ـ ١١.
(٢) المرجع السابق ص١١.

ويوضح الأستاذ علي الرضا أن هٰذا من أهم الأسباب والدوافع التي شجعته للهجرة إلىٰ دمشق، والرحيل عن مضايقات الاستعمار الفرنسي إلىٰ أرض تتمتع بحرية أكثر، واستعباد أقل[١].

فهٰذه النبذة اليسيرة ترينا جانبًا مهمًّا من جوانب نزعة الشيخ للحرية منذ أوائل حياته العلمية والعملية.

ثم بعد ذٰلك كان له ما كان من الجهود والأعمال التي وقف من خلالها مع الحرية الحقة، ورفع صوته مناديًا بها، وسخر علمه، وقلمه، ولسانه في سبيل الحصول عليها.

وفيما يلي بيان لأبرز المعالم لما قام به في ذٰلك الشأن.

*** أولاً: مطالبته الحكومة بالعناية بالحرية:**

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بعد أن تعرض لمفهوم الحرية وخصالها ـ : «نستنتج من هٰذا البيان: أن الأساس الذي ترفع عليه الحرية قواعدها ليس سوىٰ التربية والتعليم، فيتأكد علىٰ الحكومة التي تنظر إلىٰ فضيلة الحرية بعين الاحترام، أن تسعىٰ جهدها في تهذيب أخلاق الأمة، وتنوير عقولهم بالتعليمات الصحيحة قبل كل حساب، قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران]»[٢].

---

(١) المرجع السابق ص١١.
(٢) محاضرات إسلامية ص ١٣ ـ ١٤.

❁ ثانيًا: بيانه الآثارَ الحميدة المترتبة على الحرية الفاضلة:

فكثيرًا ما كان يبدي ويعيد في ذٰلك المعنىٰ الشريف؛ فيذكر ما يترتب علىٰ الحرية الحقة الفاضلة من المصالح والآثار التي تعود علىٰ الفرد والأمة، من النهوض بالعلوم، والآداب، والأخلاق؛ فتراه يقرر أنه: «إذا أضاءت علىٰ الأمة شموس الحرية، وضربت بأشعتها في كل وادٍ اتسعت آمالهم، وكبرت هممهم، وتربَّت في نفوسهم ملكة الاقتدار علىٰ الأعمال الجليلة، ومن لوازمها: اتساع دائرة المعارف بينهم، فتتفتق القرائح فهمًا، وترتوي العقول علمًا، وتأخذ الأنظار فسحةً ترمي فيها إلىٰ غايات بعيدة، فتصير دوائر الحكومة مشحونةً برجال يعرفون وجوه مصالحها الحقيقية، ولا يتحرفون عن طرق سياستها العادلة»[1].

ويقرر ـ كذٰلك ـ أن الحرية تؤسِّس في النفوس مبادئ العزة والشهامة؛ فإذا نظَّمت الحكومة منهم جندًا استماتوا تحت رايتها مدافعةً، ولا يرون القتل سُبةً إذا ما رآه الناكسو رؤوسهم تحت راية الاستبداد.

ويرىٰ ـ أيضًا ـ أن الحرية تعلم اللسان بيانًا، وتُمِدُّ اليراعة بالبراعة؛ فتزدحم علىٰ طريق الأدب الرفيع، وتتنور المجامع بفنون الفصاحة، وآيات البلاغة؛ فهٰذا خطيب يدعو إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وذٰلك شاعر يستعين بأفكاره الخيالية

(١) المرجع السابق ص٥٦.

في نصرة الحقيقة، ويحرك العواطف، ويستنهض الهمم لنشر الفضيلة، وآخر كاتب، وعلىٰ صناعة الكتابة مدار سياسة الدولة.

ويبين أن ينابيع الشعر في عهد الخلفاء الراشدين لم تكن فاغرةً أفواهها بفن المديح والإطراء، وإنما ترشح به رشحًا، وتمسح به مسحًا لا يضطهد من فضيلة الحرية فتيلًا.

وما انفلت وكاؤها، وتدفقت بالمدائح المتغالية إلا في الأعصُرِ العريقة في الاستبداد[1].

*** ثالثًا: بيانه الآثارَ السيئةَ المترتبة على الاستبداد وكَبْتِ الحريات:**

سواء كان ذٰلك في مستوىٰ الدولة، أو الأفراد.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في ذٰلك: «إذا أنشبت الدولة برعاياها مخالب الاستبداد، نزلت عن شامخ عزها ـ لا محالة ـ ، وأشرفت علىٰ حضيض التلاشي والفناء؛ إذ لا غنىٰ للحكومة عن رجال تستضيء بآرائهم في مشكلاتها، وآخرين تثق بكفاءتهم وعدالتهم، إذا فوضت إلىٰ عهدتهم بعض مهماتها، والأرض التي اندرست فيها أطلال الحرية إنما تُؤوي الضعفاء والسفلة، ولا تنبت العظماء من الرجال إلا في القليل.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٥٦ ـ ٥٧.

قال صاحب «لامية العرب»[١]:

ولكـنَّ نفـسًا حـرةً لا تقـيم بـي

علىٰ الـضيم إلا ريـثما أتحوَّلُ[٢]

إلىٰ أن يقول مواصلًا حديثه عن آثار الاستبداد: «فلا جرم أن تتألف أعضاء الحكومة وأعوانها من أناس يخادعونها، ولا يبذلون لها النصيحة في أعمالهم، وآخرين مقرنين في أصفاد الجهالة، يدبرون أمورها علىٰ حد ما تدركه أبصارهم.

وهٰذا هو السبب الوحيد لسقوط الأمة؛ فلا تلبث أن تلتهمها دولة أخرىٰ، وتجعلها في قبضة قهرها، وذٰلك جزاء الظالمين.

ثم إن الاستبداد مما يطبع نفوس الرعية علىٰ الرهبة والجبن، ويميت ما في قوتها من البأس والبسالة:

فمـــن في كفـــه مـــنهم قـــناةٌ كمن في كفِّه منهم خضابُ[٣]

---

(١) صاحب «لامية العرب»: هو الشنفري الأزدي، واللامية هي قصيدته المشهورة التي يقول طالعها:

أقيموا بني أمي صدور مَطِيَّكم فإني إلىٰ قومٍ سواكم لأميلُ

انظر: لامية العرب للشنفرىٰ، عني بها د. صلاح الدين الهواوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م ـ ١٤٢٧هـ، ص٥٢.

(٢) محاضرات إسلامية ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) البيت لأبي الطيب المتنبي، ومعنىٰ البيت: الرجال صاروا كالنساء؛ لذلتهم وصغارهم. انظر: ديوان المتنبي بشرح العكبري ١/ ٨٥.

فإذا اتخذت الدولة منهم حاميةً، أو ألفت منهم كتيبةً، عجزوا عن سد ثغورها، وشُلت أيديهم من قبل أن يشدوا بعضدها»[١].

ثم يضرب مثالًا لذٰلك يؤيد ما قرره، فيقول: «وإذا أردت مثالًا يثبت فؤادك، ويؤيد شهادة العيان، فاعتبر بما قصه اللَّه ـ تعالىٰ ـ عن قوم موسىٰ ـ عليه السلام ـ لما أمرهم بالدخول للأرض المقدسة ومَلْكِها، كيف قعد بهم الخوف عن الطاعة والامتثال؟ وقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢]؛ فمتىٰ جئت تسأل عن الأمر الذي طَبع في قلوبهم الجبن، وتطوَّح بهم في العصيان والمنازعة إلىٰ قولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة] ـ وجَدْتَهُ خُلُقَ الانقياد المتمكن في نفوسهم، من يوم كانت الأقباط ماسكةً بنواصيهم، وتذيقهم من سوء الاستعباد عذابًا أليمًا»[٢].

ويقرر إثر ذٰلك أن الأمة مفتقرةٌ إلىٰ الكاتب، والشاعر، والخطيب، والاستبداد يعقد ألسنتهم علىٰ ما في طيها من الفصاحة، وينفث فيها لُكنةً وعِيًّا، فتلحق لغتهم بأصوات الحيوانات ولا يكادون يفقهون قولًا[٣].

ويقرر ـ كذٰلك ـ أن «من مآثر الاستعباد: ما تتجشأ به اللُّها،

---

(١) محاضرات إسلامية ص٥٥.
(٢) المرجع السابق ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٣) المرجع السابق ص ٥٦.

وتسيل به الأقلام من صديد الكلمات التي يفتضح لك من طلاوتها أنها صدرت من دواخل قلب استشعر ذلةً، وتدثر صغارًا، نحو: «مقبِّل أعتابكم»، «المتشرف بخدمتكم»، «عبد نعمتكم»، ولا إخال أحدًا يصغي إلىٰ قول أحد كبراء الشعراء:

وما أنا إلا عبدُ نعمتِك التي نسبت إليها دون أهلي

إلا ويمثل في مرآة فكره شخصًا ضئيلًا، يحمل في صدره قلبًا يوشك أن ينوء بما فيه من الطمع والمسكنة»[1].

ويوضح ـ أيضًا ـ أن «من سوء عاقبة الخضوع في المقال: أن يوسم الرجل بلقب وضيع ينحته له الناس من بعض أقوالٍ له أفرغ فيها كُثْبَةً من التذلل وبَذْلِ الهمة؛ كما سمَّوا رجلًا باسم: «عائد الكلب»؛ لقوله:

إني مرضتُ فلم يعدني واحدٌ
منكم ويمرضُ كلبُكم فأعودُ[2]

ويعلق علىٰ هٰذا الخضوع بقوله: «ولا نجهل أن بعض من سلك هٰذا المسلك من التملق والمديح اتخذه سُلَّمًا؛ ليظفر بحق ثابت؛ ولٰكنه لا ينافي الغرض الذي نرمي إليه من أن الحقوق في دولة الحرية تؤخذ بصفة الاستحقاق، وفي دولة الاستبداد لا

(١) المرجع السابق ص ٥٧.
(٢) المرجع السابق ص ٥٧ ـ ٥٨.

تطالب إلا بصفة الاستعطاف، ذٰلك الوزر الذي يحبط بفضل العزة التي نبهنا اللَّه عليها، وأرشد من يريدها إلىٰ أنها تطلب بالطاعة من الكَلِم الطيب، والعمل الصالح»[1].

*** رابعًا: تأسيس الجمعيات المطالبة بالحرية، المناوئة للاستعمار:**

وقد مر ذكر لشيء منها، ومن ذٰلك ـ علىٰ وجه الخصوص ـ تأسيسه «جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية» سنة (١٣٤٢هـ)، والتي كان يهدف من ورائها الدعوة إلىٰ اتحاد الأمة، والعمل علىٰ جميع الأفراد تحت جمعيات تكسبهم قوة.

وكذٰلك دعوته لتنظيم جاليات المغرب العربي المقيمة في القاهرة في جهة واحدة متراصة، غايتها: الدفاع عن شعوب شمال أفريقيا: تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا.

تلك البلاد التي آلت أمورها إلىٰ يد المستعمر الفرنسي؛ فلاقت منه الأمَرَّين.

وقد لبت الجاليات المغربية دعوته المباركة، والتَفَّتْ حوله في مشهد رائع؛ فأنشأ جبهة تدعىٰ «جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية»، ومقرها دار «جمعية الهداية الإسلامية» في القاهرة، ولم تتخذ لنفسها مكتبًا مستقلًّا في البناء؛ حفاظًا علىٰ مال الجبهة مع قلته؛ ففي بناء «جمعية الهداية» متسع لكل عمل إسلامي نبيل.

---

(١) المرجع السابق ص ٥٨.

وقد عقدت «الجبهة» اجتماعها الأول في شهر ذي الحجة (١٣٦٣هـ)، وتم انتخاب هيئة المكتب برئاسة الشيخ محمد الخضر حسين، وعضوية ثلاثة وعشرين ما بين عالم، وأديب، وتاجر، وطبيب[١].

وقد عملت الجبهة أقصىٰ ما يمكنها للتعريف بقضايا المغرب، وعقدت المؤتمرات واللقاءات مع المسؤولين العرب والمسلمين، وشرحت للناس كافةً في المشرق ما تتعرض له شعوب المغرب، وحفزت الهمم، وكشفت جرائم فرنسا، وخططها الدنيئة أمام الرأي العام في بلاد لم تكن تسمع عن المغرب العربي إلا اسمه.

وقد بذلت الجبهةُ وسعها في خدمة قضايا المغرب، وكانت أعمالها ومواقفها المشرفة، ومحاضراتها ونشراتها ومساعيها مع ملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية ـ دعمًا قويًّا لحركات الاستقلال في المغرب[٢].

وقد جاء في النداء الأول للجبهة ـ الذي يشير إلىٰ فرنسا وجرائمها ـ ما نصه: «وما ارتكبته هنالك من فظائع التنكيل والتقتيل لمما زاد الوطنيين حماسةً لقضيتهم، وقوَّىٰ اتجاههم إلىٰ العمل لتحرير أوطانهم.

وقد عرف صدق عزيمتهم جالياتٌ في مصرَ من أبناء تلك

---

(١) انظر: جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية ص ١٨ ـ ٢٤.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٢٥.

البلاد؛ فأنشؤوا جبهة تدعىٰ: «جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية»؛ لتكون عونًا لتلك الشعوب علىٰ بسط قضيتهم للعالم الإسلامي، وتتولىٰ الدفاع عنها بيقظة وحزم، وتعمل لهزِّ العواطف النبيلة في نفوس الأمم الإسلامية؛ حتىٰ يشدوا أزرنا في العمل لتحرير وإسعاد خمسة وعشرين مليونًا من العرب المسلمين، وإنقاذهم من الاندماج في الجنسية الفرنسية، وانقلابهم إلىٰ الديانة النصرانية، وهما الغرضان اللذان تعمل لهما فرنسا ليلها ونهارها»[(١)].

وقد قاد الشيخ الخضر هٰذه الجبهة بكل جدٍّ وحزم وإخلاص؛ فلم يَضِنَّ بوقته، أو مكانته في الأوساط الحكومية والعلمية في مصر؛ مما جعل لتلك الجبهة مكانةً عاليةً، وانساق إليها أكثر اللاجئين السياسيين المقيمين في مصر، ونخبة من المناضلين المغاربة من الحزب الدستوري التونسي، وجمعيات العلماء المسلمين الجزائريين، وغيرهم[(٢)].

وكان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بصفته رئيسًا للجبهة ـ يرسل البرقيات، والنداءات للزعماء، والوزراء، والمؤتمرات، ومنها برقية أرسلت إلىٰ كل واحد من وزراء خارجية الدول الخمس: إنجلترا، وأمريكا، وروسيا، والصين، وفرنسا.

ونص البرقية: «بمناسبة اجتماعكم للنظر في مصير الشعوب،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٢٤ ـ ٢٩.

وأمامكم الهدف السامي ـ الذي هو بناء سلام عام تسعد به الأمم قاطبة ـ ، تذكِّر جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية مؤتمركم الموقر بأن في شمال إفريقيا ـ تونس، والجزائر، ومراكش ـ نحو خمسة وعشرين مليونًا من العرب، سيشاركونكم في بناء السلام العام، متىٰ ساعدتموهم علىٰ التخلص من الاستعمار الجائر، وأصبحوا يديرون شؤونهم السياسية بأيديهم.

رئيس الجبهة : محمد الخضر حسين»[١].

ومنها نداء وبيان من جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية، وقد نشر في مجلة «الهداية الإسلامية»، الجزء الثالث من المجلد الثامن عشر، الصادر في رمضان (١٣٦٤هـ)، ومذكرة من الجبهة إلىٰ مؤتمر جامعة الدول العربية، ونشر في مجلة «الهداية الإسلامية» الجزآن الرابع والخامس من المجلد الثامن عشر الصادران في شوال وذي القعدة (١٣٦٤هـ)، ومذكرة مرفوعة من الجبهة إلىٰ الملك عبدالعزيز آل سعود عند زيارته مصر عام (١٣٦٥هـ)، وقد نشرتها مجلة «الهداية الإسلامية» الجزآن التاسع والعاشر من المجلد الثامن عشر، الصادران في ربيع الأول والآخر (١٣٦٥هـ).

وغيرها كثير من النداءات، والبيانات، والنشرات[٢].

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٣٦ ـ ٩٨.

*** خامسًا: تحذيره من الركون إلى الاستعمار والثقة به:**

فهو من أكثر الناس شعورًا بإرهاب فرنسا وتعذيبها، وجرائمها؛ فهي التي لاحقته في مطلع حياته في تونس إلىٰ دمشق، وإستانبول، وبرلين، ثم دمشق، والقاهرة، وحكمت عليه بالإعدام، وأمرت بمصادرة أمواله في تونس ـ وليس لديه أموال ـ ! لذا كثر تحذيره من الاستعمار، ومن الثقة به، والتصديق بوعوده.

وكتاب «جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية» مليء بتلك التحذيرات.

ولم يكتف بما جاء بالبيانات والنشرات من التحذير من الاستعمار، والركون إليه، والثقة به، والتصديق بوعده.

بل ذكر ذٰلك في مناسبات عدة، وصاغها بقوالب مختلفة، ومن ذٰلك ما جاء في «خواطره» التي دوَّن بعضها إبان إقامته في برلين، ونشرها في كتابه «مشاهد برلين»، وزاد عليها ونشرها في مجلة «البدر» الصادرة باسم «العرب» الجزء الرابع من المجلد الثالث من شهر ربيع (١٣٤٢هـ)، والجزء السابع من المجلد الثالث الصادر في شهر رجب (١٣٤٣هـ).

والذي يعني هاهنا من هٰذه الخواطر: ما ورد فيها بشأن الاستعمار، والتحذير منه، ومن الثقة به، ومن ذٰلك قوله: «الشر نار كامنة تحملها صدور المستبدين؛ فإن قدحتَها بنقد سياستهم كنتَ لها قوتًا؛ إلا أن تكون بإخلاصك، وحكمتك البالغة

ياقوتًا»[١].

وقوله: «لا تداهنوا المولَعَ بقتل حريتكم؛ فأبخس الناس قيمةً من تصرعه الخمر كالذي يتخطبه الشيطان من المس، ثم لا يلبث أن يُلبسها من تسبيح مدحه حُللًا ضافية»[٢].

وقوله: «قد يقف لك الأجنبي علىٰ طرف المساواة، حتىٰ إذا حل وطنك متغلبًا طرحك في وهدة الاستعباد، واتخذ عنقك الحرَّ موطئًا»[٣].

بل إن للشعر نصيبًا غير منقوص من تحذيراته من الاستعمار، ومواقفه.

ومن ذٰلك ما جاء في قصيدته التي عنون لها بـ: «صرخة المغرب»، وهي قصيدة تقع في ثلاثة وثلاثين بيتًا، ويقول طالع القصيدة:

يصرخ المغرب غيظًا واحتراقا

صرخة الناهض للموت اشتياقا

لا تلوموه إذا خاض الوغىٰ

ورأيتم دمه الغض مُراقا

---

(١) هدىٰ ونور ص٦.

(٢) المرجع السابق ص ٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٠، وانظر: الرحلات للشيخ محمد الخضر حسين ص١٧٧.

هـو يلـتذ الـردىٰ إذ يـسكب الـ

الـضيم في أكؤسـه مـاءً زُعاقـا[١]

ثم يسترسل في بيان كون الشرق سببًا لنهضة المغرب، ويستنهض الهمم لإعانة المغرب؛ كي يتخلص من نَيْرِ الاستعمار، ويصور خلالها ظلم الفرنسيين، وأعمالهم الشائنة في بلاد المغرب.

وله قصائد كثيرة في ذم الاستعمار، وسياساته، وديوان «خواطر الحياة» حافل بذٰلك الغرض.

فهٰذه معالم منهجه ومواقفه من المطالبة بالحرية الحقة.

(١) ديوان خواطر الحياة للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٥٧ ـ ١٦٠.

❁ المطلب الثاني: حرية الفوضى ❁

لئن كان الشيخ ـ كما مر في المطلب الماضي ـ قد وقف ذٰلك الموقف العظيم مع الحرية الحقة الفاضلة ـ فإنه قد وقف موقفًا مثله ضد دعاوىٰ حرية الفوضىٰ.

بل إن موقفه الأول يتضمن موقفه الثاني تمامًا؛ إذ إن مطالبته بالحرية الحقة هي ـ في الحقيقة ـ مطالبة ضمنية بالوقوف ضد حرية الفوضىٰ؛ ذٰلك أن المستبد المستعمر إنما يريد فرض القوانين، ونبذ الشريعة، ونشر الإباحية، وإشاعة ما يدعو إلىٰ الانفلات من الدين بدعوىٰ الحرية.

ولا ريب أن ذٰلك الصنيع ليس حريةً حقيقيةً، وإنما هو فوضىٰ ـ كما قرر الشيخ الخضر ذٰلك مرارًا وتكرارًا ـ.

ولهٰذا سيحمل الحديث في هٰذا المطلب طابعَ الإيجاز؛ ذٰلك أن مواقف الشيخ الخضر من العلمانية، والإلحاد، والتغريب ـ هي مواقف ضد حرية الفوضىٰ.

ومهما يكُ من شيء، فإن للشيخ الخضر تحريراتٍ عدةً قرر من خلالها وقوفه ضد حرية الفوضىٰ صراحة.

ويمكن إيضاح المعالم العامة لتلك التحريرات من خلال ما يلي:

❁ أولاً: تقريره أن الحرية الحقة وسطٌ بين طرفين:

وقد مر ذٰلك في المبحث الثاني من هٰذا الفصل؛ فقد قرر فيه

أن في تعديْ الإنسان الحدَّ ـ الذي قَضَتْ عليه أصول الاجتماع بالوقوف عنده ـ ضربًا من الإفراط، ويقابله في الطرف الآخر حرمانه من التمتع بحقوقه، والحريةُ وسطٌ بينهما[١].

وهو بهٰذا التقرير ينفي أن تُعَدَّ الفوضىٰ، ومجاوزةُ الحدود الشرعية والمرعية حريةً حقيقية.

❁ ثانيًا: تصحيح المفهومات الخاطئة عن الحرية:

وهٰذا قريبٌ ومؤكِّد لما جاء في الفقرة الماضية.

ومما قرره في ذٰلك الشأن قوله: «يخال بعض الناشئة أن الحرية حقٌّ يبيح لصاحبه أن يجهر بكل ما يقدح في فكره من الآراء، وينشر في مقاله كل ما يؤلفه من الهجاء والأوصاف الشائنة كما يفعل الشاعر الحطيئة.

وهٰذا المعنىٰ بضعة من الحرية، ولٰكن بعد سبكه وإفراغه في قالب أصلٍ من الأصول التي سنتلوها عليكم في مبحث: الحرية في الأعراض»[٢].

ويذكر صورةً من صور التطرف في تفسير الحرية، فيقول: «وتطرَّف فريق من الناس، ففسروا الحرية بأسوأ تفسير، وتأولوها علىٰ معنىٰ امتثال داعية الهوىٰ بإطلاقِ وتنفيذِ الإرادة، وإن مسَّ غيره بأذىً، أو حَجَره عن حق ثابت لا يعترضه فيه نزاع.

---

(١) انظر: محاضرات إسلامية ص ١٢. (٢) محاضرات إسلامية ص ١٤.

وترىٰ كثيرًا منهم لا يتصور لها معنًىٰ سوىٰ حمل السلاح تحت لواء القوة، وإعماله في سبيل الاغتصاب»[١].

ويزيد الأمر وضوحًا في تصحيح ما يقع فيه الخطأ في باب الحرية؛ فيضرب المثل بحال المحكوم الذي يضع نفسه موضع الحاكم؛ لكونه مشاركًا له في الحرية.

يقول الشيخ في تصحيح تلك الصورة الغالطة: «ولا يصح في نظر أي عقلٍ كان أن يُعنوَنَ علىٰ أثر من آثار سوء الضمير ودناءة الطمع باسم فضيلة يدرك بها المحكوم شأو الحاكم، ويترشح بها لمشاركته في اللقب كما شاركه في استقلال الإرادة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة].

فتسمية بني إسرائيل جميعهم في ذٰلك العهد «ملوكًا»، انجرَّ لهم من الحرية التي نالوها بعد مغادرة أوطان الذلة، والتملص من سوء العذاب والاستعباد الذي سامهم به آل فرعون، ووضعوه في أعناقهم سلاسلَ وأغلالًا»[٢].

*** ثالثًا: تنديده بمن يسمُّون الطعن في الدين والفضيلة حرية:**

فتراه يقرر أن لحرية الرأي حدودًا إذا تجاوزتها كان إثمها أكبر

(١) المرجع السابق ص١٤.
(٢) المرجع السابق ص١٤.

من نفعها، وأنه لا يدخل في حدودها الطعنُ في الدين، أو الجهرُ بآراء تَنْتَزِع النفوس من العفاف، وتقودها إلىٰ الطاعة العمياء؛ لذٰلك تراه يندد كثيرًا بمن يلهجون بحرية الفكر وهم ينالون من الشريعة[١].

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في إحدىٰ خواطره: «سمَّيتَ الاستخفاف بالشرع حريةً، فقلتُ: برع في فن المجاز، وتهكم بمن أصبح عبدًا للهوىٰ.

وسميت النفاق كياسةً، فقلت: خان الفضيلة في اسمها، أو خان النظر في فهمها»[٢].

❁ رابعًا: إظهاره تناقض دعاة الحرية:

كما جاء في «نقد مقالة الإلحاد»؛ حيث بيَّن تناقض هٰؤلاء؛ فهو يرىٰ أنهم يَشْكُون ويتذمَّرون من حزم الرئيس المصلح واحتراسه من مكرهم؛ فإذا مَلَك أحدُهم قوةً أرهق فضلاء الناس، ولا يكون من أولٰئك الذين يندبون حرية الفكر؛ إلَّا أن يتغنوا بمديحه في الصحف، ويسمُّون إرهاقه الغاشم إصلاحًا[٣].

ويقول في مقدمة كتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»: «تلهج هٰذه الطائفةُ باسم حرية الفكر، وهي لا تقصد إلا هٰذا الفن

---

(١) انظر: الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع التونسي ص٢٥١.

(٢) هدىٰ ونور للشيخ محمد الخضر حسين ص٤، ومحاضرات إسلامية ص ٢٢٣.

(٣) محاضرات إسلامية ص٢٢٣.

الذي أكبَّت عليه صباحها ومساءها، وهو النَّيل من هداية الإسلام، والغضُّ من رجالٍ جاهدوا في سبيله بحجة وعزم وإقدام.

يكفي شاهدًا علىٰ رياء هٰؤلاء الرهط: أنهم يقيمون مآتم يندبون فيها حرية الفكر، ثم ينصرفون ويقولون فيما يكتبون: للحكومة أن ترهق الشعب، وترغمه علىٰ ما تراه أمرًا لائقًا»[١].

وبيَّن في معرض حديث له عن الإلحاد أن من طبائع الملاحدة إلحاحَهم في الدعوة إلىٰ حرية الرأي في الدين؛ لتجد دعوتُهم المعاديةُ للدين سعةً.

ثم يبين أن من ملك من هٰؤلاء قوةً استعملها في اضطهاد رجال الدين المستقيمين، وسدَّ باب الحرية في وجوههم؛ فإن لم يفعل ذٰلك علىٰ طريقة مكشوفة فعله من طرق ملتوية[٢].

فهٰذه إشارات ترشد إلىٰ موقفه الواضح من إنكار حرية الفوضىٰ.

وإلىٰ هنا ينتهي الكلام علىٰ ما تيسر إيراده من موقف الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قضية الحرية، والحمد للَّه رب العالمين.

(١) نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص٨.
(٢) انظر: رسائل في الإصلاح للشيخ الخضر ص ٢٠ ـ ٢١.

المحتويات

المحتويات

المقدِّمة ٥
مدخل: وقفة حول مصطلح الحرية ١١
المبحث الأول: جهود الشيخ الخضر رَحِمَهُ اللَّهُ في التأصيل لقضية الحرية ١٩
المبحث الثاني: مفهوم الحرية عنده ٣١
المطلب الأول: معالم الحرية ٣٢
أولًا: تعريف «الحرية» وحدودها: ٣٢
١ ـ تعريفها في الأصل الوضعي اللغوي: ٣٢
٢ ـ تعريف «الحرية» باصطلاح الصوفية: ٣٣
٣ ـ الحرية في الاصطلاح المعاصر: ٣٣
٤ ـ الحرية فضيلةٌ وسط: ٣٤
ثانيًا: خصال الحرية: ٣٥
أحدها: معرفة الإنسان ما له وما عليه: ٣٥
ثانيها: شرف نفس يزكي طويتها: ٣٥
ثالثها: إذعانٌ يدخل به تحت نظر القوانينِ المقامةِ علىٰ قواعد الإنصاف: ٣٦
رابعها: عزةُ جانب، وشهامة خاطر: ٣٦

ثالثًا: قاعدتا الحرية: ٣٦
المطلب الثاني: أنواعُ الحرية ٤١
أولًا: الحرية في الأموال: ٤١
١ ـ اكتساب الأموال: ٤١
٢ ـ الطريق الوسط: ٤٢
٣ ـ التمتع بها: ٤٢
٤ ـ الاعتداء عليها: ٤٣
ثانيًا: الحرية في الأعراض: ٤٥
ثالثًا: الحرية في الدماء: ٤٦
رابعًا: الحرية في الدين: ٤٨
خامسًا: الحرية في خطاب الأمراء: ٥١
سادسًا: حرية الدعوة: ٥٣
سابعًا: حرية البحث والاستقصاء: ٥٧
المبحث الثالث: موقفه من الحرية الحقة وحرية الفوضى ... ٦٣
المطلب الأول: وقوفه مع الحريَّة الحقَّة ٦٤
أولًا: مطالبته الحكومة بالعناية بالحرية: ٦٨
ثانيًا: بيانه الآثارَ الحميدة المترتبة علىٰ الحرية الفاضلة: ٦٩
ثالثًا: بيانه الآثارَ السيئةَ المترتبة علىٰ الاستبداد وكَبْتِ الحريات: ٧٠

رابعًا: تأسيس الجمعيات المطالبة بالحرية، المناوئة للاستعمار: ٧٤
خامسًا: تحذيره من الركون إلىٰ الاستعمار والثقة به: ٧٨
المطلب الثاني: حرية الفوضىٰ ٨١
أولًا: تقريره أن الحرية الحقة وسطٌ بين طرفين: ٨١
ثانيًا: تصحيح المفهومات الخاطئة عن الحرية: ٨٢
ثالثًا: تنديده بمن يسمُّون الطعن في الدين والفضيلة حرية: .. ٨٣
رابعًا: إظهاره تناقض دعاة الحرية: ٨٤
المحتويات ٨٩